المساجدُ في الصِّين

بقلم : محمود يوسف لى هوا ين

دار النشر باللغات الاجنبية
بكين

الطبعة الاولى ...... عام ١٩٨٩

٢٤ شارع باى وان تشوانغ
بكين — الصين

ISBN7-119-00844-7

طبع فى جمهورية الصين الشعبية

الفهرس

تمهيد

تعتبر الصين من اوائل البلدان التى دخل اليها الاسلام : وبعد ان مضى على انتشاره فيها اكثر من ١٣٠٠ سنة ، اصبح عقيدة مشتركة لدى عشر اقليات قومية هى : هوى والويغور والقازاق والقرغيز والتتار والاوزبك والطاجيك ودونغشيانغ وسالار وباوآن . يبلغ عدد ابناء هذه القوميات المسلمة ١٤ مليونا و٢٧٩ الف لسمة حسب الاحصاء الرسمى الثالث الذى اجرى على نطاق البلاد عامة سنة ١٩٨٢ . ومعظمهم يتوزعون فى نينغشيا وشينجيانغ وقانسو وتشينغهاى بكثافة ، بينما البقية الباقية منهم ينتشرون فى مدن وقرى سائر المقاطعات والبلديات والمناطق الذاتية الحكم بما فيها جزيرة تايوان وهونغ كونغ وماكاو .

وفى بحر اكثر من الف سنة بنى المسلمون الصينيون من مختلف القوميات كثيرا من المساجد الكبيرة والصغيرة . وتفيدنا الاحصائيات غير الكاملة ان عدد المساجد فى الصين يبلغ الآن اكثر من ٢٣ الف مسجد وهى تنتشر فى ٣٠ مقاطعة وبلدية ومنطقة ذاتية الحكم وكذلك فى تايوان وهونغ كونغ وماكاو . علما ان بعضها ذو تاريخ عريق ، وبعضها رائع الهندسة ، وبعضها متألق بضياء التبادلات الثقافية بين الصين وبلاد العرب . وهذه المساجد ليست مجرد مراكز دينية للجموع الغفيرة من المسلمين ، بل هى كذلك من فرائد الآثار التاريخية فى الصين .

عندما ذهبت الى مكة المكرمة ، ام القرى ، لأداء فريضة الحج ، وجلت

فى بعض الامصار الاسلامية للزيارة ولممارسة النشاطات العلمية ، وجدت كثيرا من المسلمين من مختلف الجنسيات يهتمون غاية الاهتمام بماضى المساجد فى الصين وحاضرها . فقمت بترتيب ما جمعته من المعلومات المعنية بهذا الشأن ، واخرجتها فى كتاب . واضع هذا الكتاب بين ايدى اعزائى القراء ليكون نافذة صغيرة ، يطلون منها على مساجد الصين . وانى لأرجو ان اكون قد وفقت فيما قصدت اليه ، ولكن هذا العمل لا يخلو طبعا من نواقص واخطاء لقلة خبرتى فى التأليف ، فأنا انتظر ارشادات اعزائى القراء الحصيفين :

ومع تقديم هذا الكتاب يسرنى ان اقدم جزيل شكرى الى زميلى القديم فى العمل السيد لى هونغ تاو – مدير قسم اللغة العربية فى دار النشر باللغات الاجنبية فى بكين – على تشجيعه اياى على تأليف هذا الكتاب ، والى السيد جيانغ هان قوانغ – محرر دار النشر بالذات – الذى ساهم فى تحريره . كما يسرنى ان اقدم عظيم شكرى الى الاستاذ محمد نمر عبد الكريم ، خبير اللغة العربية فى دار النشر ، على جهوده فى تهذيب تراجم هذا الكتاب . وانى لأرجو ان يكون هذا الكتاب الصغير عروة اخرى جديدة تضاف الى عرى المودة والاخوة بيننا . . .

محمود يوسف لى هوا ين
١٩٨٨ / ٢ / ٦

نبذة عامة

" وان المساجد لله " (سورة الجن — ١٨)

بعد ان بنى النبى محمد عليه السلام فى السنة الاولى من الهجرة أول مسجد فى قباء على بعد ٣ كيلومترات جنوبى المدينة المنورة ، حث على بناء المساجد قائلا : " من بنى مسجدا يبتغى به وجه الله ، بنى الله له مثله فى الجنة " (اخرجه البخارى) فأصبح بناء المساجد واجبا على المسلمين . وما من مدينة مزمع بناؤها او منطقة تقرر تعميرها فى البلدان الاسلامية ، الا ادرج بناء المساجد فى تخطيطها العام . معنى ذلك ان كل مكان معمور بعدد معين من المسلمين فى هذه البلدان لا يخلو من المساجد . وعلى الرغم من ان الصين نائية جدا عن قلب حظيرة الاسلام ، الا انها تشبه البلدان الاسلامية فى هذا الصدد . فيانآن — محراب الثورة الصينية — مثلا مدينة جبلية نائية لم يكن فيها اثر للمسلمين ابدا . ولكنها شهدت ، فى السنوات العصيبة لحرب المقاومة ضد اليابان (١٩٣٧ — ١٩٤٥ م) ، بناء مسجد بعد ان توارد اليها جماعات اثر جماعات من المسلمين الشباب للمشاركة فى المقاومة ، مما يدل على ان ظهور المساجد فى الصين كان متزامنا مع دخول الاسلام اليها على وجه التقريب .

ظهور المساجد فى الصين

قيل ان اول مسجد ظهر الى حيز الوجود فى الصين كان فى عهد اسرة تانغ (٦١٨ – ٩٠٧ م)، وهو مسجد هوايشنغ (الحنين الى النبى) بمدينة قوانغتشو *. والطريف ان هناك رواية تقول بأنه شيد على يد السيد الصحابى سعد بن ابى وقاص رضى الله عنه الذى جاء الى الصين لنشر الاسلام. ولكن المقطوع به انه يصعب جدا تحديد تاريخ بنائه ومعرفة بانيه لعدم توفر الادلة الدامغة على صحة هذه الرواية.

وقيل ان مسجد زقاق داشيوهشيشيانغ بمدينة شيآن هو من اقدم المساجد فى الصين، حيث ان النصب الحجرى القائم فى فنائه قد نقشت عليه الكتابات التالية: " نظرا الى ان صاحب الجلالة فى عهد تيانباو (٧٤٢ – ٧٥٦ م) قد وجد شريعة نبى الغرب (اى النبى محمد عليه السلام الذى بزغ نجمه فى جزيرة العرب) تتفق مع شريعة نبى الصين (اى كونفوشيوس) فقد امر فى السنة الاولى (٧٤٢ م) من حكمه مراقب العمل فى وزارة التعمير لوه تيان جيويه بتنظيم البنائين فى بناء مسجد لرعاية المسلمين الذين كان إمامهم بدر الدين".. و" قد بدئ بتنفيذ هذا المشروع فى الشهر الاول من السنة الاولى (٧٤٢ م) من عهد تيانباو، وانجز بناؤه فى يوم ٢٤ الشهر الثامن من السنة ذاتها". " وخوفا من ان يرخى النسيان ستاره على تاريخ بناء المسجد على كر العصور، فيعجز عن تحديد ذلك المتأخرون، قرر مراقب العمل وزملاؤه اقامة هذا النصب الحجرى.." وبالاضافة الى المنقوشات السالفة الذكر، نقشت فى اسفل النصب الكلمات التالية: " السنة الاولى (٧٤٢ م) من عهد

* هى مدينة ساحلية فى جنوب شرقى الصين، وقد عرفت فى العالم سابقا باسم " خانفو" و" كانتون".

تيانباو" . ويشير ذلك الى ان هذا المسجد قد تم بناؤه بعد حوالى مئة سنة من بناء مسجد هوايشنغ ، حسب ما ورد فى الرواية الخاصة به . ان التدوينات المنقوشة على هذا النصب الحجرى لا تدعو الى الشك اذا استدللناها منطقيا . الا ان تراجم الاصطلاحات الاسلامية المستعملة فى هذه المنقوشات تختلف الى حد ما عن مثيلاتها فى التدوينات الاخرى آنذاك . فقد رأى الاختصاصيون ان النصب الحجرى قد يعود الى عهد اسرة مينغ (١٣٦٨ – ١٦٤٤ م) كما استنتجوا ان القول بأن المسجد بنى فى سنة ٧٤٢ ليس له اساس من الصحة .

ومن اجل ايجاد حل للغز الذى يكتنف تاريخ بناء مسجد هوايشنغ ذهب بعض العلماء الى القول بأنه قد بنى فى القرن الثانى عشر ، استنادا الى مدونات يوه كه وفانغ شين روسنة ١١٩٢ وسنة ١٢٠٦ . والحقيقة ان هذا الاستنتاج ايضا يبدو بعيدا عن الصحة ، اذ انه يوحى الينا بأن تاريخ المسجد يبتدئ من الوقت الذى ظهرت فيه التدوينات الخاصة به . ولا يخفى على احد انه كان هناك كثير من الاحداث التاريخية ، بما فى ذلك احداث عظيمة الشأن ، لم تسجل فى التدوينات فى حينها . وعلى الرغم من ان الوقائع التاريخية المدونة فورا قابلة للتصديق ، الا ان مثيلاتها المدونة فيما بعد ، او التى لم تدون نهائيا ، لا تعنى انها لم تكن موجودة فى التاريخ . فلو صح القول بأن مسجد هوايشنغ يعود فى تاريخه الى القرن الثانى عشر ، لكان هناك ٤ الى ٥ قرون بين دخول الاسلام الى الصين فى منتصف القرن السابع ، وظهور المساجد فيها . وهذا طبعا غير معقول لأن وجود المسلمين يقتضى كما اسلفنا وجود المساجد مباشرة .

منذ زمن يعود الى عهد اسرة تانغ (٦١٨ – ٩٠٧ م) شهدت الصين وجود كثير من الجاليات العربية المسلمة . ويؤكد ذلك ان عشرات الآلاف منهم قد غدوا ضحايا لمصيبتين حربيتين حسب ما جاء فى السجلات التاريخية .

وبالاضافة الى ذلك فقد كان هناك تاجر عربى اسمه سليمان * دون خلال زيارته قوانغتشو سنة ٨٥١ م الحقيقة التالية : "كان الامبراطور الصينى قد عين احد المسلمين ليعالج دعاوى الجاليات الاسلامية ويؤم المصلين" ، مما قدم دليلا تكميليا قويا على كثرة عددهم آنذاك . ومن المؤكد ان مثل هذا العدد الضخم من الجاليات العربية الاسلامية لا يسكن بحال ان يهاجروا الى المدينة دفعة واحدة ، وانما تم ذلك نتيجة لتناسلهم وتكاثرهم هناك عدة اجيال . كما كان مستحيلا على الاطلاق ان تخلو هذه المدينة من المساجد ما دامت مأهولة بعدد كبير من المسلمين . والواقع ان المكان الذى كان المسلمون يصلون فيه مقتدين بالامام الذى عينه الامبراطور حسب ما جاء فى تدوين سليمان هو فى حد ذاته المسجد . واغلب الظن انه ظهر قبل زمن طويل من مجيء سليمان الى قوانغتشو .

اذن لماذا ليس هناك تدوينات خاصة بالمساجد الصينية منذ دخول الاسلام الى الصين سنة ٦٥١ م حتى زيارة سليمان لقوانغتشو سنة ٨٥١ م ؟ قد يكون هناك سببان بالرجوع الى الاستدلالات المنطقية .

الاول : على الرغم من ان النبى عليه السلام وخلفاءه الراشدين كانوا مستولين على مقاليد الامور الدينية والسياسية والعسكرية فى آن واحد ، الا انهم كانوا زاهدين فى الحياة الدنيا ومنصرفين الى الجهاد فى سبيل الله ؛ وكانت متعتهم المادية محدودة للغاية . وفى ظل ذلك كانت المساجد المبنية آنذاك بسيطة كل البساطة . فمسجد قباء الذى بناه النبى عليه السلام قبل غيره كان مكعبا مؤلفا من صفوف من جذوع النخل ، تحيط به جدران من

* جرت العادة على تسميته " التاجر سليمان " او "سليمان السيرافى " . وكان اول عربى وصف بصورة صادقة اوضاع الجاليات العربية الاسلامية فى الصين . وقد خلف وراءه كتابا معروفا باسم « رحلة التاجر سليمان» وهو المرجع الاول العربى لعلوم البحار ، ومخطوطته محفوظة فى مكتبة باريس .

لبن وحجارة . . يعلوها سقف رقيق من سعف النخل . وبعد ان تم للنبى عليه السلام بناء مسجد قباء قال : " ما امرت بتشييد المساجد " (اخرجه ابو داؤد — كلمة التشييد هنا معناها زخرفة) . ومنذئذ كادت المساجد المتواضعة والصالحة لاقامة الصلاة تصبح نموذجا يحتذى به فى فترة من الفترات . اما المساجد التى بنتها جحافل الفتوح الاسلامية فى البصرة والكوفة وغيرهما من الاماكن على ضفاف الرافدين ، فقد كانت متأثرة بهذه التقاليد دون استثناء . وهذه الحقائق التاريخية توحى الينا بأن مساجد الصين المبنية فى القرنين السابع والثامن كانت غاية فى البساطة بكل تأكيد . ومن المحتمل انها كانت من المبانى العادية غير المميزة . ولذلك فقد كان من الصعب ان تثير الانتباه ، فضلا عن تدوينها فى السجلات التاريخية .

والثانى : معروف ان بناء المساجد من الاعمال الصالحة ، ومن المحرم اظهارها رئاء ؛ فقد جاء فى الذكر الحكيم : "كالذى ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلدا لا يقدرون على شيء مما كسبوا والله لا يهدى القوم الكافرين " (سورة البقرة — آية ٢٦٤) . اما النبى فقد اعتبر من تصدق فى الخفاء واحدا من السبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل الا ظله "* . ولم يكتف بذلك بل وصفه بأبلغ تعبير : " . . . ورجل تصدق خفية حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه . " ** ان لمثل هذا النوع من التعاليم الاسلامية تأثيراته العميقة فى نفوس المسلمين الصينيين حتى زمننا هذا . والدليل على ذلك ان بعضهم ينفق امواله فى سبيل الخير بسخاء دون ان يعلن عن اسمه ، وبعضهم الآخر يقف فى وجه اقامة النصب التذكارى للمساجد الجديدة لتجنب شبهة الرياء *** . فلا عجب

* أخرجه البخارى .

** من نفس الحديث السابق .

*** اذ قال ابن الجوز : من كتب اسمه على المسجد الذى يبنيه كان بعيدا عن الاخلاص .

ان لا تخلف الجاليات العربية الاسلامية وراءهم تدوينات خاصة بالمساجد التى بنوها فى الصين .

وصفوة القول انه ليس هناك تدوينات خاصة بالمساجد فى قوانغتشو قبل زيارة التاجر العربى سليمان لها وتدوينه احوال الجاليات العربية الاسلامية . ولكن هناك دلائل على ان هذه المدينة قد شهدت المساجد بلا شك بعد دخول الاسلام الى الصين .

نظرة عامة على مساجد الصين

فى أواخر عهد أسرة تانغ (٦١٨ — ٩٠٧ م) واوائل اسرة سونغ (٩٦٠ — ١٢٧٩ م) كان الصينيون يسمون المسجد " لى تانغ " (قاعة الاجتماع) ، ثم اطلقوا عليه اسم " لى باى تانغ " (قاعة الصلاة) او " سى تانغ " (المتعبد). وفى اواسط القرن الثالث عشر اخذ المسلمون الصينيون فى تسمية المسجد " تشينغ تشن سى " (متعبد الصفاء والحق) . وقد صارت هذه التسمية شائعة الاستعمال بعد مضى قرنين من ظهورها . . يشار بكلمة " تشينغ " (الصفاء) الى ان الله تعالى صاف لا تشوبه شائبة ابدا ، وانه غير مستقر فى مكان محدد ، وانه الاول والآخر . بينما يشار بكلمة " تشن " (الحق) الى ان " الله احد ، الله صمد ، لم يلد ، ولم يولد ، ولم يكن له كفوا احد " ، * اما كلمة " سى " (المتعبد) فهى كلمة مستعارة من البوذيين والنسطوريين الصينيين . وهذه التسمية تختلف طبعا عن كلمة " المسجد " الى حد بعيد .

ان المسجد او بيت الله هو متعبد مفضل للعابدين بمعناه الضيق ، ومركز

---

* من سورة الاخلاص .

لنشاطات المسلمين الدينية بمعناه الواسع . ذلك انه مكان للدعوة الاسلامية وموقع لائق للسائلين والمتعلمين ، الى جانب كونه مكانا للصلاة . ولكن لمساجد الصين مهام اخرى . فهى لا تفتح ابوابها لمجرد استقبال المصلين والمستمعين الى المواعظ الحسنة ، بل تشرف ايضا على عقود الزواج ومراسم الجنائز والاصلاح بين المتخاصمين ومساعدة المحتاجين وتنظيم الالعاب الرياضيـة وسط المسلمين . . الخ . وقد رأى بعض المؤرخين ان تعدد مهام المساجد فى الصين يعود الى زمن قديم ، بدليل ان مسجد هوايشنغ فى مدينة قوانغتشو كان مركزا لنشاطات المسلمين الدينية ومجالا لنشاطاتهم التجارية فى آن واحد . وان مسجد تشينغجينغ فى مدينة تشيوانتشو — مدينة الزيتون — (وهو مسجد قديم آخر فى الصين . وسوف يتطرق الكتاب اليه فيما بعد) لم يكتف " بشراء الاراضى والمبانى لمنفعة عامة المسلمين " بل اسس مقبرة عامة للجاليات الاسلامية فى الايام الاولى من بنائه . ويشير ذلك الى ان نشاطات هذين المسجدين القديمين لم تكن قط مقصورة على الامور الدينية . وحيث ان مساجد الصين متعددة المهام ، فان علاقة المسلمين المحليين بها اوثق من المعتاد . حتى ليقال " ان مثل المسلمين الذين فقدوا المساجد كمثل الاسماك التى فارقت المياه " . ففور اعادة حرية المعتقدات الدينية فى الصين ، بعد ان طويت صفحة " الثورة الثقافية " (١٩٦٦ — ١٩٧٦ م) ، سرعان ما شن المسلمون فى كل انحاء البلاد حملة نشطة لبناء المساجد من جديد . وكان هناك عدد كبير ممن نادوا ببناء المساجد بملء حناجرهم ، وتبرعوا بكل ما لديهم من الذخائر لهذا الخصوص . كما ان اسرا كثيرة توجه رجالها ونساؤها ، كبارا وصغارا ، الى مواقع العمل فى بناء المساجد لتقديم الخدمات طوعا . ونتيجة لذلك اثارت المساجد التى تم بناؤها فى هذه الفترة اعجابا شديدا لدى الناس لسرعة بنائها وقلة تكاليفها واقتصاد موادها وجودة انشائها . ومع

ان اغلبية المتحمسين لبناء المساجد من المسلمين الاتقياء ، الا ان بينهم عددا ممن لا يؤدون العبادات كما يجب ، حتى ان بعضهم لا يصلى الا فى قليل من الاحيان . فهناك مثلا مسلم تردد على موقع العمل ، حيث ساهم فى بناء المسجد دون مقابل ، بالاضافة الى تبرعه بقدر معين من المال . وحين سئل عن سبب حماسته لبناء المسجد قال : " انا آسف لأننى لست مسلما صالحا ، بيد اننى تائه الفكر دائما لعدم وجود المساجد ، فلا بد لى من ان اقدم خدمات لبناء المسجد بقدر المستطاع لكى اشعر بطمأنينة نفسية . ." وكفى بذلك دليلا على مدى تأثيرات المساجد فى نفوس المسلمين الصينيين !

والمسجد المبنى على الطراز الصينى يتكون غالبا من قاعة للصلاة وجناحين ، شمالى وجنوبى ، للدعوة الاسلامية ودورة مياه للتوضؤ وبرج لمشاهدة الهلال . غير ان الجوامع فى الصين تزهو كذلك بردهات وقاعات اجتماع ومطاعم ومساكن ، الى جانب الانشاءات السالفة الذكر .

وعلى مدار اكثر من ١٣٠٠ سنة من دخول الاسلام الى الصين تم للمسلمين الصينيين بناء اعداد كبيرة من المساجد فى طول البلاد وعرضها . . عرف بعضها بعراقة تاريخه ، وعرف بعضها الآخر بضخامة بنائه وروعة هندسته . ومما يؤسف له ان الكثير من هذه المساجد قد تقوض ، ثم تلاشى بفعل الكوارث الطبيعية او الغزو الاستعمارى . الامر الذى جعل من المتعذر دراسة تاريخ مساجد الصين وتاريخ الاسلام الصينى دراسة دقيقة وافية . ومهما يكن من أمر فان مساجد الصين التى ماتزال قائمة من العهود الغابرة الى يومنا هذا تعتبر آثارا قيمة ، لا بد من الرجوع اليها لدى دراسة تاريخ الاسلام فى الصين .

الفصل الاول

لمحة عن المساجد فى الصين

منذ دق الاسلام باب الصين فى منتصف القرن السابع اجتاز سبع مراحل تاريخية فيها ، هى : الاسر الامبراطورية : تانغ وسونغ ويوان ومينغ وتشينغ ، وجمهورية الصين وجمهورية الصين الشعبية . وتختلف اوضاع مساجد الصين باختلاف مكانة المسلمين الصينيين السياسية والاقتصادية عبر المراحل التاريخية السالفة الذكر .

ومن اجل اطلاع اعزائى القراء على احوال مساجد الصين بصورة مبرمجة يسرنى القاء الاضواء على ٢٠ نموذجا منها حسب الترتيب الزمنى .

الدور الاول (من سنة ٦٥١ ـ ١٢٧٩م) *

تفيدنا المصادر الصينية ان اول مندوب مبعوث من الخليفة عثمان بن

---

* اتفق المؤرخون الصينيون على انّ سنة ٦٥١ (اى السنة الثانية من حكم الامبراطور لى تشى فى عهد يونغهوى من أسرة تانغ الممتدة من سنة ٦١٨ الى سنة ٩٠٧) هى سنة دخول الاسلام الى الصين . اما سنة ١٢٧٩ فهى سنة سقوط اسرة سونغ (٩٦٠ - ١٢٧٩م) .

عفان وصل الى تشانغآن (شيآن اليوم وعاصمة الصين آنذاك) فى ٢٥ اغسطس ٦٥١ م . واذ قابل الامبراطور الصينى قاو تسونغ لأسرة تانغ (٦١٨ — ٩٠٧ م) عرفه بأحوال بلده والشريعة الاسلامية اجمالا . وقد رأى المؤرخون الصينيون ان الاسلام قد دخل الى الصين مع وصول رسول الصداقة هذا . وبفضل ازدياد الاتصالات المطردة بين الصين وبلاد العرب استوطن عدد من العرب الوافدين الصين ، بحيث اصبح لهم صلة قرابة مع الصينيين وقبلوا الحضارة الصينية بالتدريج . اما فى عهد اسرة سونغ (٩٦٠ — ١٢٧٩ م) فقد ازداد عدد العرب والفرس الوافدين الى الصين للاستيطان اكثر مما كان عليه ، وتوسع نفوذهم اكثر من ذى قبل . وخير دليل على ذلك ان ابو شوقى العربى كان قد تولى منصبا عاليا فى حكومة الصين آنذاك . وقد جرت عادة المؤرخين الصينيين على تسمية هذه الفترة (اى من زيارة المبعوث السالف الذكر للصين سنة ٦٥١ الى سقوط اسرة سونغ سنة ١٢٧٩) مرحلة دخول الاسلام الى الصين . ومن المتوقع ان الجاليات العربية الاسلامية آنذاك قد بنوا ، فى هذه الفترة الطويلة ، عددا كبيرا من المساجد تيسيرا لعباداتهم ، ولكن اغلبيتها قد طواها الزمن . وما يقوم حتى يومنا هذا من المساجد المتبقية من تلك الفترة لا يتجاوز ٥ مساجد أبينها فيما يلى :

١ — مسجد هوايشنغ فى مدينة قوانغشو

عندما كانت التبادلات الاقتصادية والثقافية بين الصين وبلاد العرب فى اوج ازدهارها فى عهد اسرة تانغ (٦١٨ — ٩٠٧ م) ، توارد عدد كبير من التجار العرب الى مدينة قوانغتشو — احدى المدن الساحلية فى الصين وابرز موانئها — مرورا بالخليج العربى وخليج البنغال ومضيق ملقا وبحر الصين الجنوبى وكان من ضمنهم جماعة استوطنوا هذه المدينة فبنوا فيها مساجد

لأداء الصلاة ومعالجة شؤونهم المتعلقة بالدين والعبادات . ويعتقد بأن مسجد هوايشنغ (المسمى ايضا " مسجد قوانغتا " – المنارة – لفخامة منارته) هو من المساجد التى تم بناؤها على ايدى الجاليات العربية الاسلامية آنذاك . ولكن الرواية التى سبق ذكرها فى صدر الكتاب تقول بأنه شيد على يد الصحابى الجليل سعد ابن ابى وقاص رضى الله عنه الذى جاء الى الصين لنشر الاسلام بامر من النبى . اما الكتابات العربية المنقوشة على اللوح الرخامى فى مسجد هوايشنغ ، فتتفق وما ورد فى الرواية ، اذ جاء فيها :

" هذا هو اول مسجد فى الصين بناه سيدنا وقاص رضى الله عنه ، اذ دخل هذه الدار لاظهار الاسلام بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم جدده المتأخرون مرة بعد مرة . قد حفظه الله تعالى الى الآن سليما من الآفات . وهو فى الصين مبدأ الاسلام ومنبع العلوم . فينبغى لمسلمى الصين ان يزينوا ظهره بالعمارة الحسنة ، ويصلحوا باطنه باقامة الجماعة . وعلى مسلمى هذا البلد خصوصا انشاء مدرسة . فاعتبروا يا أولى الابصار . . التوقيع : الوصى سليمان عبد الكريم "

ان هذه الكتابات العربية سليمة ومتماسكة لغويا . فمن المحتمل ان تكون من كتابات احد المسلمين العرب الذين استوطنوا مدينة قوانغتشو فى وقت مبكر . ولكن ليس هناك سبيل الى معرفة الزمن الذى نقشت فيه هذه الكتابات غير المؤرخة . ومع ذلك فان كلمات " ثم جدده المتأخرون مرة بعد مرة " الواردة فى الكتابات توحى الينا بأنها كتبت بعد زمن طويل من بناء المسجد . اما الصحابى سعد وقاص الوارد فى الرواية ، فبالاضافة الى ورود ذكره فى الكتابات العربية المنقوشة مايزال ضريحه قائما على مقربة من جسر ليوهوا فى ضواحى قوانغتشو . وجرت العادة على تسميته " ضريح الحكيم المرحوم "

تعظيما لشأن صاحبه . واكثر من ذلك ان المسلمين هناك يقومون عادة بزيارة هذا الضريح فى الاعياد الاسلامية ، سائلين الله ان يتغمد صاحبه برحمته ومغفرته . وقد تبين لنا ان مجيء شخص الى الصين يدعى وقاص لاظهار الاسلام قد حدث فعلا ودون ادنى شك . بيد ان " وقاص " الذى يتردد اسمه على ألسنة المسلمين الصينيين ليس الصحابى سعد ابن ابى وقاص الذائع الصيت فى عهد النبى عليه السلام . اذ ان كل من له دراية بتاريخ الاسلام لا يخفى عليه ان هذا الاخير كان قائدا عسكريا بجوار النبى عليه السلام ، ظل ملازما له فى غزواته لمحاربة اعداء الاسلام من مكان لآخر ، وساهم بقسط كبير فى الكثير من المعارك التى جرت فى فجر الاسلام . واثر ذلك انتقل الى القادسية فى العراق اليوم بأمر من الخليفة الثانى عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، حيث قاد معركة عنيفة ضد الفرس ، عقد له فيها لواء النصر ، واظهر الكثير الكثير من المواهب العسكرية المثيرة للاعجاب . وقد ابلى فى القتال بلاء حسنا على امتداد حياته ، وخاض غمار الكثير من المعارك الحامية الوطيس قبل ان توافيه المنية فى المدينة المنورة سنة ٦٧٥ م . واهم من ذلك ان المصادر العربية لم تذكر قط ان الصحابى الجليل سعد ابن ابى وقاص قد وطئت قدماه الصين . فغاية ما يمكن ان يقال فى امر وقاص الوارد ذكره فى الرواية انه مجرد تشابه فى التسمية ، ليس الا .

ان « تاريخ تينغ » الذى الفه يوه كه هو اول كتاب صينى ذكر فيه مسجد هوايشنغ . وقد بدأ المؤلف يدون ذكرياته فى العاشرة من عمره (اى فى سنة ١١٩٢ م) قائلا : " فى المسجد منارة ، ارتفاعها عشرات الامتار . وكل ما نقش عليها كتابات غريبة " دون ان يشير الى تاريخ بنائه . . وبعد اربع عشرة سنة من ذلك (اى فى سنة ١٢٠٦ م) تم للشاعر فانغ شين رو تأليف ديوان شعر بعنوان « مائة انشودة لبحر الصين الجنوبى » وبين دفتيه قصيدة

بعنوان « تمجيد المنارة الاجنبية » ورد فى حاشيته الختامية ما يلى : " بدئ ببناء المنارة الاجنبية فى عهد اسرة تانغ . وجرت العادة على تسميتها ' منارة هوايشنغ' ، وتبدو على شكل اسطوانة . ويبلغ ارتفاعها عشرات الامتار ". زد على ذلك ان الكتابات المنقوشة على « نصب تجديد بناء مسجد هوايشنغ » والمسجلة بيد قوه جيا فى سنة ١٣٥٠ م ، تشير الى ان المسجد " قائم من عهد اسرة تانغ " . ونستدل من ذلك على اهمية القول ببنائه فى تلك الفترة ! غير ان التدوينات التاريخية المذكورة اعلاه ظهرت بعد ٣٠٠ ـ ٤٠٠ سنة من تاريخ بناء المسجد المبين فى الرواية الشائعة ، فلا يمكن اعتبارها مستندا لتحديد تاريخ المسجد من حيث وجهة النظر التاريخية . هذا ما دفع بعض المؤرخين الى القول بان تاريخه قد يعود الى القرن الثانى عشر الذى ظهرت فيه تدوينات يوه كه وفانغ شين رو . وبدهى ان هذا الرأى ليس له اساس من الصحة كما ذكرنا سابقا . وهناك فريق من المؤرخين رأوا ان المكان الذى كان ذلك المسلم الصينى يؤم فيه المصلين بتعيين من الامبراطور الصينى هو سلف مسجد هوايشنغ على الارجح ، وان كانت المنارة غير مذكورة فى كتاب « رحلة سليمان » الذى تم تأليفه فى القرن التاسع . وهؤلاء المؤرخون لا يعتبرونها دليلاً يؤكد وجود المسجد او عدم وجوده ، ذلك انها لا تؤثر فى كيان المسجد ابدا سواء أكانت موجودة ام غير موجودة . اذ يمكن اعتبار المسجد قائما بمجرد قيام مبناه الرئيسى ـ قاعة الصلاة . اما المنارة ـ وهى مبنى جانبى للمسجد ـ فيجوز بناؤها خلال بناء قاعة الصلاة ، ويجوز بناؤها بعد ذلك بفترة من الزمن . وتحليل المسألة على هذا النحو يبين لنا ان القول ببنائه فى عهد اسرة تانغ له ما يسوغه ، وليس مجرد تلفيق .

وفيما يختص بتسمية المسجد يشير كتاب « فصول تانغ الستة » الى انه " بنى على يد الجنرال هواى شنغ ، فأطلق عليه اسمه " ، بينما تفيدنا المنقوشات

على « نصب تجديد بناء المسجد » انه : " سمى بذلك (اى هوايشنغ وهى تحمل معنى الحنين الى النبى) تعبيرا عن الحنين الى النبى عليه الصلاة والسلام " . وتعد المقولة الثانية مما يتفق عليه المؤرخون عموما : ذلك ان المسلمين العرب الذين استوطنوا مدينة قوانغتشو فى فجر الاسلام اما ان يكونوا قد نشأوا فى عهد ليس بعيدا عن عهد النبى (ص) ، واما ان يكونوا قد سبق لهم ان اهتدوا الى الاسلام على يده مباشرة . فبعد ان هاجروا الى الصين ، لم يستطيعوا كبح جماح حنينهم الى النبى (ص) . وهذا ما حداهم الى تسمية المسجد الذى بنوه " هوايشنغ " تعبيرا عن مشاعرهم العميقة لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقد ورد فى المنقوشات على « نصب تجديد بناء المسجد » الذى يرجع تاريخه الى سنة ١٣٥٠ ما يلى : " لقد دمر المسجد فى سنة كويوى (١٣٤٣ م) فى عهد تشيتشنغ لأسرة يوان ، وغدت مبانيه أنقاضا " . فليس هناك سبيل الى معرفة ملامحه الاصلية . اما قاعة الصلاة المعاد بناؤها فى سنة ١٣٥٠ م ، فقد تلاشت هى الاخرى فى الثلاثينات من القرن الجارى . غير ان مقالة « مشاهدات فى اثناء تفكيك قاعة مسجد هوايشنغ » قد اعطت لمحة عن ملامح المسجد السابقة ، اذ جاء فيها ما يلى : " يتربع مسجد هوايشنغ فى شارع قوانغتا (المنارة) ، ويغطى مساحة واسعة من الارض ، ويسور بسياج قصير امام بوابته . ولو سرت من البوابة الى الداخل عشرات الاقدام ، لوجدت نفسك امام برج مشاهدة الهلال القائم الشامخ بكل خيلاء ، حيث يمكن رؤية سلم متأنق وممرين مسقوفين ، يمتد احدهما فى شرقى فناء المسجد والآخر فى غربيه ، وعلى جانبى كل منهما تنتصب كثير من اشجار الصنوبر الهرمة المخضوضرة ، مما يزيد المكان جمالا وروعة . وهناك رصيف يرتفع ٩ درجات ، وتطوقه الدرابزينات ، وتطل عليه قاعة الصلاة البادية على شكل قصر صينى الطراز . وهى مصلى للمسلمين المحليين . وقد غدت هذه القاعة

ا الهيبة عرضة للسقوط منذ سنوات ، لذلك تقرر اعادة بنائها اعتمادا على التبرعات بعد ترميم المنارة . ولكن الاهالى واجهوا الصعوبات فى تحقيق ما يصبون اليه لضخامة المشروع . واشد ما يدعو الى القلق انهم ان يجدوا مكانا لائقا لاقامة الصلاة اذا ما تهدمت هذه القاعة . وعبر مناقشات متكررة بدءا من السنة الماضية (١٩٣٤ م) الى الشهر الجارى (فى ربيع سنة ١٩٣٥) اجمعوا على تفكيكها فى الرابع والعشرين من الشهر نفسه . وقد تجلى للاعين ان مواد البناء المفكوكة من مواقعها امتن واروع بكثير من مثيلاتها فى زماننا هذا . أما تسنيمة سقف القاعة فقد كانت جد متماسكة ومتكاملة لارتباط كل اجزائها بالاسلاك النحاسية والمسامير الضخمة . وغاية ما يدعو الى الاعجاب ان اجواف التسنيمة كانت مختومة باحكام . . . "

اما قاعة الصلاة التى اعيد بناؤها سنة ١٩٣٥ ، فهى كبيرة المساحة . . حسنة الاضاءة . . مميزة بخصائص القصور التقليدية الصينية ايضا . وبعد التحرير مدت الحكومة الشعبية يد المساعدة الى المسلمين هناك لترميم مسجد هوايشنغ مرارا ، مما جعله يبدو فى غاية الروعة والبهاء . وبالاضافة الى انه بيت من بيوت الله ، يقيم فيه المسلمون الصينيون والاجانب صلواتهم ، فقد اصبح مزارا للضيوف القادمين من كل فج عميق بعد ادراجه فى قائمة اهم الآثار المحمية على نطاق مدينة قوانغتشو .

تتجلى قيمة مسجد هوايشنغ فى عراقة تاريخه وضخامة بنائه المتميز باسلوب العمارة العربى : منارة اسطوانية الشكل ، ترتفع ٣٦ مترا عن اديم الارض . . وتبدو كأنها شعلة تناطح السحاب ، لأنها تتكون من جزأين . . الجزء الأعلى يمثل فتيل الشعلة ، ونظيره الاسفل يمثل بدنها . اما جدرانها المبنية من الطوب فتتكون من طبقتين داخلية وخارجية ، حشر بينهما التراب لتقوية الجدران . وفى جوف المنارة سلمان لولبيان ، لا يتشابك احدهما مع

الآخر ، ولكل منهما ١٥٤ درجة . وهناك نافذة صغيرة على جدران المنارة بعد كل عدة درجات محددة ، تصلح لتسرب الضوء الى الداخل . ولو صعدت الى قمة المنارة ، للفت نظرك معالم مدينة قوانغتشو كلها ، مما يشرح الصدر ويبهج القلب . وتختلف المنارة عن الباغودات الشائعة فى الصين اختلافا تاما من حيث شكلها وتركيبها على حد سواء . فيمكن القول بأنها منارة مبنية على الطراز الاسلامى البحت . وعلى الرغم من ان هذه المنارة قد أخنى عليها الدهر ، الا انها مازالت تنتصب بكل خيلاء على ضفة نهر اللؤلؤ كما كانت عليه سابقا . . انها شاهد عيان على عراقة التبادلات الثقافية بين الصين وبلاد العرب ، كما انها ترمز الى ان مجرى الصداقة بين شعب الصين وشعوب العالم الاسلامى مازال يتدفق بزخم شأنه شأن نهر اللؤلؤ تماما .

٢ ــ مسجد تشينغجينغ بمدينة تشيوانتشو

تقع مدينة تشيوانتشو فى منطقة مجرى نهر جينجيانغ على سواحل الصين الجنوبية الشرقية ، او بالاحرى عند ملتقى النهر والبحر . فهى ميناء طبيعى جيد . ومنذ عهد الاسرة الجنوبية ــ الشمالية (٤٢٠ ــ ٥٨٩ م) دخلت تشيوانتشو فى مصاف الموانئ الصينية الخاصة بالتجارة الخارجية . اما فى اوائل عهد اسرة سونغ الجنوبية (١١٢٧ ــ ١٢٧٩ م) فقد شهدت تشيوانتشو عشرات الآلاف من التجار ورجال الدين الأجانب * قدموا لممارسة النشاطات التجارية والدينية . اما مدينة الزيتون التى ذكرها الرحالة العربى العظيم ابن بطوطة (١٣٠٤ ــ ١٣٧٧ م) فى كتابه : « تحفة النظار فى غرائب الامصار وعجائب الاسفار» ، فهى المدينة المعنية التى نحن بصدد الحديث عنها .

---

* كان من بينهم مسلمون ومسيحيون .

لقد جاء فى كتابه ما يلى : " لما قطعنا البحر ، كانت اول مدينة وصلنا اليها مدينة الزيتون ، وهذه المدينة ليس بها زيتون ولا بجميع بلاد اهل الصين والهنود ، ولكنه اسم وضع عليها . وهى مدينة عظيمة كبيرة تصنع بها ثياب الكمخا والاطلس ، وتعرف بالنسبة اليها ، وتفضل الثياب الخنساوية والخنبالقية . ومرساها من اعظم مراسى الدنيا او هو اعظمها . رأيت به مائة جنك (سفينة شراعية صينية) كبار ، واما الصغار فلا تحصى كثرة . . " وبفضل تطور المواصلات المائية فى تشيوانتشو الى ابعد مدى ، فقد ترك المسلمون العرب آثار أقدامهم فيها منذ زمن بعيد ، كما خلفوا وراءهم كميات كبيرة من الآثار التاريخية هناك ، من ضمنها مسجد يحمل اسم "تشينغجينغ" (الصفاء والنظافة) .

مسجد تشينغجينغ مسجد كبير ، يشغل مساحة تقدر بهكتار واحد . ويتكوّن من ثلاثة مبان رئيسية ، هى قاعة الصلاة وقاعة الدعوة والبوابة . وقد بنيت قاعة الصلاة بأحجار الغرانيت البيضاء المختلفة الاحجام وهى تشغل مساحة قدرها ٦٠٠ متر مربع . وعلى قبتها وجدرانها الاربعة نقوش من الآيات القرآنية . وعلى العتبة العليا لباب القاعة ثلاثة سطور من النقوش تشمل الآيات ١٢٥ — ١٢٧ من سورة البقرة . ومما يدعو الى الاسف ان قبة القاعة قد تهدمت بفعل الزلازل الشديدة سنة ١٦٠٧ م . اما بوابة المسجد ، فيبلغ ارتفاعها عشرين مترا وعرضها يقارب ٥ امتار . وهى مبنية من الغرانيت الازرق الضارب الى البياض . وتبدو عتبتها العليا على شكل عقد مخمس . وقد قيل ان هذا النوع من الاشكال المعمارية قد نقل عن مثيله فى دمشق . وكان على سطح البوابة المزدانة بشرفات على شكل فراشة منارة ، لكنها لم تعد قائمة . وما نقش على عتبة البوابة العليا هو آيات قرآنية (١٨ — ١٩ من سورة آل عمران) . وبالاضافة الى تميز بوابة المسجد بممر رباعى العقود وثلاثى الفسحات ،

فانها بديعة الهندسة ، متناسقة الاجزاء ، جميلة النقوش . وهى جديرة بأن تعد من روائع الفن المعمارى الاسلامى فى القرون الوسطى .

وهناك مبخرة من الغرانيت يرجع تاريخها الى عهد اسرة سونغ الشمالية (٩٦٠ — ١١٢٧ م) ، ويبلغ ارتفاعها مترا واحدا ، ووزنها مئات الكيلوغرامات ، وعليها نقوش بالغة الجمال والدقة ، وهى تحفة فريدة جدا .

وقد ظل هذا المسجد العريق المميز بأسلوب العمارة الاسلامى يحظى بالاهتمام البالغ من الاختصاصيين الصينيين والأجانب . ويفيدنا رقيم * « تاريخ مسجد تشينغجينغ » الذى دبجه وو جيان باللغة الصينية فى سنة ١٣٤٩ م ما يلى : " هناك شخص يدعى نجيب مظهر الدين ، قد ابحر من سيراف (بلدة فى ايران على الخليج العربى) فى سفينة تجارية الى تشيوانتشو فى السنة الاولى (١١٣١ م) من عهد شاوشينغ لأسرة سونغ ، فتم له بناء هذا المسجد فى الناحية الجنوبية من المدينة ، ثم احضر مصابيح فضية ومبخرة تيسيرا لممارسة العبادات ، وألحق به اطيانا ومبانى ينتفع بها عامة المسلمين . وبعد فترة من الزمن تعرض المسجد لأزمة اقتصادية ، حتى غدا مهجورا بسبب فتور احمد — متولى المسجد ** — عن تأدية مهامه . ولما نقل ' هودار ' (وكان موظفا متجولا فى منطقة فوجيان) مكتبه الى تشيوانتشو سنة ١٣٤٩ م ، عهد شيخ الاسلام برهان الدين الى الخطيب شريف الدين بقيادة عامة المسلمين فى تقديم الدعوة الى الموظف المتجول . وفور ذلك قام قاو تشانغ سى يوى (مبعوث الموظف المتجول) بجولة تفقدية للمسجد ، حيث اعرب عن رغبته

---

* الكتاب على اللوح الحجرى .

** يسمى مدير المسجد او راعى المسجد بـ " المتولى " فى الهند وايران وكذلك فى الصين .

فى استعادة ما فقده المسجد من الممتلكات ، مما سر الحاضرين ايما سرور. "
ومنذ ذلك الوقت تحسن وضع المسجد المتدهور . وعرفنا من الرقيم ان " برهان الدين كان قد بلغ من العمر عتيا (١٢٠ سنة) ، الا انه كان قوى البدن ، فكان يبدو كأنه فى مقتبل العمر . . ولتفوقه فى الفضل والعلم لقب ' شيخ الاسلام ' ". كما عرفنا من الرقيم ان المسجد قد اصبح له مجموعة كاملة من رجال الدين ، يشتملون على خطيب وامام ومؤذن ومتول ، اضافة الى شيخ الاسلام . فيحق لنا القول بأن الرقيم من انفس المعلومات التاريخية الخاصة بتاريخ مساجد الصين . هذا هو سر ادخاله فى «تاريخ مدينة تشيوانتشو» منذ زمن بعيد ليرجع اليه المؤرخون .

وبالاضافة الى الرقيم السالف الذكر فان المسجد يزهو برقيم آخر مكتوب باللغة العربية . وقد ظل هذا الرقيم العربى مهملا فى زاوية النسيان ردحا طويلا من الزمن بسبب غموض كتاباته . ولم تتبين للعيان اهميته الا بعد ان ميز احد العلماء الاسبان فحواه فى اوائل القرن الجارى . اما معانى الرقيم العربى فتتلخص فيما يلى : " هذا هو اول مسجد للمحليين يسمى ' المسجد القديم ' المبارك كما يسمى ' مسجد الصحابة ' . وقد بنى فى سنة ٤٠٠ هـ (بين سنة ١٠٠٩ — ١٠١٠ م) . وبعد ٤٠٠ سنة من ذلك تم ترميمه وتوسيع بنائه على يد احمد بن محمد القدسى . وقد بنيت له هذه البوابة الضخمة والممر المسقوف الشاهق ، كما اضيفت اليه الابواب والشبابيك الجميلة الجديدة ، وذلك ابتغاء لوجه الله جل جلاله . "

وقد تبين لنا ان الرقيم العربى يختلف عن مثيله الصينى فى تاريخ بناء المسجد وتسميته على حد سواء . لأن احدهما يقول ان المسجد يحمل اسم " الصحابة " ويرجع تاريخه الى سنة ٤٠٠ هـ (بين سنتى ١٠٠٩ — ١٠١٠ م)، والآخر يقول انه يسمى " تشينغجينغ " ، وانه بنى فى سنة ١١٣١ م . ونتيجة

لذلك فقد تردد الاختصاصيون فى الأمر . فمن ذلك ان السيد برتسايم (Berchem) الفرنسى رأى ان تاريخ المسجد الوارد فى الرقيم الصينى قابل للتصديق نسبيا ، ثم اشار الى ضرورة اعادة الاهتمام بما ورد فى الرقيم العربى . اما المؤرخ الصينى باى شو يى فقد قال فى مقالة له نشرت فى سنة ١٩٣٨ : " لقد كنت اميل الى الاقرار بما جاء فى الرقيم العربى ، ولكن سرعان ما وجدته غير موثوق به . " وكان هناك مقولة تفيدنا بأن المسجد الذى نحن بصدده هو مسجد " الصحابة " بالضبط ، بينما مسجد تشينغجينغ الذى ذكر فى الرقيم الصينى قد دمر فى اواخر عهد اسرة يوان (١٢٧١ — ١٣٦٨ م) ، ثم نقل رقيمه المتبقى من التدمير الى مسجد " الصحابة " . هذا وقد خيل الى المتأخرين ان الرقيم المنقول هو خاص بمسجد " الصحابة " مع مرور الايام . وفى هذه الحالة حل اسم مسجد تشينغجينغ محل اسم مسجد " الصحابة " فى نهاية المطاف . ومعنى ذلك ان الرقيم العربى خاص بمسجد " الصحابة " وان مثيله الصينى خاص بمسجد تشينغجينغ الذى لم يعد موجودا فى واقع الامر . . وان لكل مسجد من المسجدين المذكورين تاريخ خاص به ، ولا يمكن ابدا اعتبارهما مسجدا واحدا يحمل اسمين مختلفين .

وعندما جرى تفكيك سور المدينة على مقربة من بوابتها الجنوبية فى الفترة ما بين سنة ١٩٤٦ وسنة ١٩٤٨ اكتشفت اكثر من ٢٠ قطعة من الغرانيت منقوشة بكتابات عربية بارزة ، كما اكتشفت اكثر من ٣٠ قرمة عمود منقوشة برسوم الازهار الى جانب آية من الذكر الحكيم : " وان المساجد لله " (سورة الجن — آية ١٨) . وجدير بالذكر ان موقع هذه الاكتشافات يتفق مع موقع مسجد تشينغجينغ المذكور فى الرقيم الصينى الذى جاءت فيه كلمات : " لقد بنى هذا المسجد فى الناحية الجنوبية من المدينة " . الامر الذى قدم دليلا تكميليا على صحة قول اصحاب وجهة النظر هذه .

وعلى الرغم من ان وجهة النظر هذه معقولة نسبيا ، الى جانب انها لا تخلو من الدلائل التاريخية ، الا ان الكثير من المؤرخين ظلوا يشكون فى صحتها ، فلا يمكن اعتبارها استنتاجا نهائيا .

ومهما يكن من امر فان المؤرخين يتفقون على ان المسجد الوحيد القائم حاليا فى مدينة تشيوانتشو هو من انفس الآثار الاسلامية فى الصين سواء أكان مسجد " تشينغجينغ " ام مسجد " الصحابة " . فلا غرو انه قد ادرج فى قائمة اهم الآثار التاريخية المحمية على نطاق البلاد ، سنة ١٩٦١ .

٣ ـ مسجد تشنجياو (او مسجد العنقاء) بمدينة هانغتشو

هانغتشو مدينة جميلة المناظر غنية بالثروات . وقد كانت عاصمة الصين فى عهد اسرة سونغ الجنوبية (١١٢٧ ـ ١٢٧٩ م) ، كما كانت ميناء تجاريا دوليا هاما فى التاريخ . اما مسجد "تشنجياو" (الدين الحق) الواقع فى شارع الدكتور صون يات صن بالمدينة فقد سمى " مسجد العنقاء " ايضا لأن بناءه يشبه العنقاء الناشرة جناحيها . قيل ان بوابة المسجد وبرج مشاهدة الهلال القائم عليها ، يشبه رأس العنقاء ، وان الممر المؤدى من البوابة الى الداخل يشبه عنقها ، وان صفين من الاشجار الهرمة المتسامقة على يمين المسجد ويساره يبدوان وكأنهما جناحان لها ، وان المبانى المتوزعة فى قلب المسجد تشبه بدنها ، وان دغلة من البامبو خلف قاعة الصلاة تشبه ذيلها . أما البئران امام قاعة الصلاة فقد جرت العادة على تشبيههما بعينى العنقاء . كما قيل ان المسجد قد تم بناؤه فى عهد اسرة تانغ (٦١٨ ـ ٩٠٧ م) ، ثم اتلف سنة ١٢٠٣ م ، واعيد بناؤه فى عهد اسرة يوان (١٢٧١ ـ ١٣٦٨ م) . ولكن النصب الحجرى القائم فى المسجد الذى يرجع تاريخه الى سنة ١٤٩٣ يشير الى انه قد بنى سنة ١٢٨١ م ، بينما يشير « تاريخ

هانغتشو» الى انه شيد على يد علاء الدين العربى سنة ١٣١٤ م . وقد وصف ابن بطوطة ما رآه هناك قائلا : " فى اليوم الثالث دخلنا المدينة الثالثة ، ويسكنها المسلمون . ومدينتهم حسنة واسواقهم مرتبة كترتيبها فى بلاد الاسلام . بها المساجد والمؤذنون ، سمعناهم يؤذنون بالظهر عند دخولنا . ونزلنا منها بدار اولاد عثمان ابن عفان المصرى ، وكان احد التجار الكبار (الذى) استحسن هذه المدينة فاستوطنها ، وعرفت بالنسبة اليه ، واورث عقبه بها الجاه والحرمة ، وهم على ما كان عليه ابوهم من الايثار على الفقراء والاعانة للمحتاجين . ولهم زاوية تعرف بالسليمانية حسنة العمارة ، لها اوقاف كثيرة ، وبها طائفة من الصوفية ، وبنى عثمان المذكور المسجد الجامع بهذه المدينة . ووقف عليه وعلى الزاوية اوقافا عظيمة ، وعدد المسلمين بالمدينة كثير . . " ونعرف من تدوينات ابن بطوطة ان المسلمين العرب كانوا قد استوطنوا هانغتشو منذ زمن بعيد . ولكن ليس فى حوزتنا معلومات دالة على ان المسجد العثمانى الذى رآه ابن بطوطة بأم عينيه هو المسجد المشيد على يد علاء الدين سنة ١٣١٤ م ، حسب ما ورد ذكره فى « تاريخ مدينة هانغتشو» .

ويحتفظ مسجد تشنجياو (او العنقاء) بست قطع ونصف من الطوب المنقوش ، يرجع تاريخها الى عهد اسرة سونغ الجنوبية . ان هذا النوع من الطوب يبدو على شكل مربع وهو بحجم ٥ر٤٢ سم × ٥ر٤٢ سم × ٧ر٤ سم . ويلاحظ على سطح الطوب آيات قرآنية (٩٢ — ٩٦ من سورة آل عمران) وعلى سطحه الجانبى نقوش من الكتابات : " طوب مصنوع فى عهد اسرة سونغ حسب طاب هانغتشو عاصمة البلاد " . وتعتبر هذه النقوش من الادلة الاضافية على تاريخ المسجد .

تمتد مبانى المسجد الرئيسية : البوابة وقاعة الصلاة وقاعة الدعوة على خطه المحورى الوهمى من الشرق الى الغرب . اما قاعة الصلاة — اقدم مبنى فى

المسجد ــ فمسقطها الافقى غير منتظم ويبلغ عرضها ثلاث فسح (الفسحة : المسافة بين دعامتين) ، ومبنية من الطوب وخالية من العوارض ومطلية جدرانها بالجير الابيض ومزخرفة بالنقوش الجميلة . وتتكون واجهات القاعة من البنايات الثلاثية الفسح ، ولكل فسحة باب . وترى على كلا الجمالونين اثنين من الابواب ذات الخطوط القوسية الانسيابية ، مع العلم ان هذا النوع من البوابات يبدو على شكل باغودة ليوخه اذا نظرت اليه عن بعد . اما الجدران الخلفية للقاعة ، فليس لها ابواب ، ولكنك ترى فى الاجزاء العليا من الجدران ما بين كل فسحتين اثنتين من النوافذ المعقودة الشكل . كما ترى افاريز بارزة على اعالى الجدران ، وصفوفا منتظمة من القراميد على سطح القاعة الذى تنتصب عليه ثلاث عليات مخروطية الشكل . ومن الواضح ان ظهور هذه المبانى المخروطية الشكل على السقف متأثر بأسلوب العمارة الاسلامى دون شك .

وكانت بوابة المسجد مكسوة بالنقوش الطوبية الجميلة . وعلى كلا جانبيها سلم خشبى يمكن الصعود عليه الى برج مشاهدة الهلال القائم على البوابة والبالغ ارتفاعه عشرات الامتار . وكان هذا البرج فى غاية من الروعة . ومن المؤسف انه فكك سنة ١٩٢٩ عنوة بأمر من سلطة حزب الكومينتانغ ، وذلك بحجة انه كان " يؤثر فى المواصلات" على حد زعمهم ، الامر الذى شوه ملامح المسجد الكاملة . وفى الايام الاولى من تأسيس الصين الجديدة خرب المسجد الى حد كبير لحرمانه من الترميم مدة طويلة . فقد لجأ المسلمون هناك سنة ١٩٥٣ الى ترميمه على نطاق واسع ، فتجددت ملامحه كل الجدة . ودخل هذا المسجد العريق فى قائمة اهم الآثار المحمية على نطاق البلاد .

٤ ــ مسجد شيانخه (الكركى) بمدينة يانغتشو

تقع مدينة يانغتشو على ملتقى نهر اليانغتسى والقناة الكبرى . ومنذ عهد

اسرتى سوى وتانغ (٥٨١ - ٩٠٧ م) اصبحت محورا للنقل المائى فى الصين ، كما اصبحت مركزا للتبادلات الاقتصادية والثقافية بينها وبين بقية اجزاء العالم . وخلال ذلك توارد الكثير من العرب الى هذه المدينة برا وبحرا لممارسة التبادلات الاقتصادية والثقافية هناك . وحسب ما ورد ذكره فى « سيرة تيان شين قونغ» من «تاريخ تانغ الجديد» "شهدت يانغتشو حادثة غدا عشرات الآلاف من التجار العرب والفرس ضحاياها" . ويدل ذلك على ان هذه المدينة من اوائل المدن الصينية التى دخل اليها الاسلام ، شأنها شأن قوانغتشو وتشيوانتشو وهانغتشو تماما . كما يدل على ان ظهور المساجد فيها منذ ذلك الحين لا يدعو الى الشك . ولكن اغلب الظن انها اما احترقت فى ايام تأجج نيران الحرب ، واما دمرت بفعل عاديات الطبيعة . اما مسجد شيانخه (الكركى) الباقى من الزمن الغابر فى المدينة ، فيذكر مع مسجد هوايشنغ (قوانغتشو) ومسجد تشينغجينغ (تشيوانتشو) ومسجد تشنجياو (هانغتشو) فى آن واحد . وقد جرت العادة على تسمية هذه المساجد "مساجد الصين الأربعة القديمة" .

قيل ان مسجد شيانخه قد شيد على يد بهاء الدين العربى فى الفترة ما بين سنة ١٢٦٥ - ١٢٧٤ م . وبعد ان فرغ من بناء المسجد توجه الى شاندونغ وغيرها من المناطق للزيارة . وفى طريق عودته من مدينة جينينغ الى يانغتشو فى سنة ١٢٧٥ م توفى فى قمرة داخل السفينة التى كان يركبها . فدفنه يوان قوانغ ان (المسلم) ، والى المدينة آنذاك ، فوق مرتفعات على ضفة نهر قوانغخه الشرقية فى المدينة حسب وصيته . وما زال قبره قائما هناك . وقد اصبحت البقعة المحيطة بقبره مقبرة عامة للمسلمين فيما بعد . اما السقطى المتوفى فى عهد اسرة سونغ والمسلمون المتوفون فى عهد اسرتى يوان ومينغ ، فقد دفنوا هناك ايضا . وفى الجنوب الغربى من المقبرة مسجد ، يسمى مع موقعه " موئل

المسلمين" ، حيث تنتصب اربع شواهد لتخليد ذكرى المسلمين المتوفين في عهد اسرة يوان . وعليها نقوش من الكتابات الصينية والعربية والفارسية .

وقد سمى مسجد شيانخه (الكركى) للشبه بين مبانيه والكركى . وبعد ان اعيد بناؤه على يد شخص يدعى حسن سنة ١٣٩٠ م ، قام بترميمه التاجر المسلم ما تسونغ داو والامام الحامى سنة ١٥٢٣ م . وقد بنيت قاعة الصلاة فيه من الاطارات المعمارية الكبيرة . وتبدو دعاماتها منحنية قليلا بسبب عراقة تاريخها . ولو ذهبت الى الجنوب من القاعة لوجدت نفسك امام برج مشاهدة الهلال الذى تم بناؤه فى عهد اسرة مينغ (١٣٦٨ — ١٦٤٤ م) . وبالاضافة الى مسجد شيانخه فان هناك ستة مساجد اخرى ، ولكنها اقل شأنا من مسجد شيانخه بكثير من حيث عراقتها وضخامتها . ولذلك فان المسجد الذى نحن بصدده اتخذ فى فترة من الفترات مصلى لجميع المسلمين هناك فى العيدين المباركين . ومما يدعو الى الاسف ان المعلومات الخاصة بالمسجد قليلة جدا ، مما سبب صعوبات فى سبر اغوار تاريخه . ومع ذلك فان مسجد شيانخه يحتل مكانة لا يستهان بها فى التاريخ الاسلامى الصينى .

* * *

تختلف المساجد القديمة الاربعة المذكورة اعلاه بعضها عن بعض فى زمن البناء واسلوب العمارة ، ولكنها تشترك فى نقطتين : احداهما ، ظهور هذه المساجد فى المدن التى كانت مراكز لنشاطات العرب التجارية ؛ والثانية ، ان كل مؤسسى المساجد من الجاليات العربية الاسلامية فى الصين . فيحق لنا القول بأن هذه المساجد العريقة جديرة بأن تعتبر شاهد عيان على كثرة التبادلات الاقتصادية والثقافية بين الصين وبلاد العرب فى التاريخ ، وان مؤسسيها يجب ان يوصفوا بأنهم رواد الصداقة التقليدية بين الطرفين . زد على

ذلك ان هناك ميزة مشتركة ثالثة بين هذه المساجد ، تتمثل فى حملها اسماء حيوانات مثل "الكركى" و"الاسد" (لقب مسجد هوايشنغ) و"الحصان المجنح" (لقب مسجد تشينغجينغ) و"العنقاء" (لقب مسجد تشنجياو) ؛ ويعتبر ذلك مصادفة لا مثيل لها فى تسمية المساجد فى الصين ، وربما فى العالم كله .

٥ — مسجد نيوجيه ببكين

مسجد نيوجيه من اقدم المساجد فى شمالى الصين . وقد بنى سنة ٩٩٦ م حسب ما جاء فى « تاريخ قانغشانغ » . وكان هناك عدد من المؤرخين يشكون فى صحة ذلك . ولكن ينقصهم البرهان على نفى الامر . ولذلك فان زمن بناء المسجد السالف الذكر ظل معترفا به على وجه العموم . وتفيدنا المدونات التاريخية ان احد العرب ، ويدعى الشيخ قوام الدين ، قد جاء من بلده الى الصين . وكان معه ثلاثة اولاد : ابنه البكر صدر الدين ، وابنه الثانى ناصر الدين ، وابنه الثالث سعد الدين ، وكلهم اذكياء واكفاء فوق العادة . وكان من طبيعتهم ان عاشوا عيشة الاعتكاف ، فلم يستسيغوا ابدا الوظائف التى منحهم اياها البلاط الامبراطورى . ولذلك فقد انعم على كل منهم بلقب امام المسلمين حين استوطنوا الصين . اما صدر الدين فقد غادر مقره الى اماكن اخرى لنشر الاسلام ، ولم يرجع . وقام سعد الدين ببناء مسجد فى دونغقوه (الناحية الشرقية من بكين) ، كما قام ناصر الدين ببناء مسجد فى ضاحية بكين الجنوبية (اى ناحية نيوجيه اليوم) بأمر من الامبراطور . وهذا المسجد الاخير هو مسجد نيوجيه اليوم . وقد كان صغير الحجم فى بادئ الامر ، ثم اصبح على الصورة التى نراها اليوم بعد توسيع بنائه مرارا فى عهد اسرتى مينغ وتشينغ (١٣٦٨ — ١٩١١م) . وفى سنة ١٤٧٤ م اطلق الامبراطور

عليه اسم "لى باى سى" * (دار الصلاة) . ولما تم ترميمه سنة ١٦٩٦ م على حساب البلاط الامبراطورى منح لوحا مكتوبا عليه "دار الصلاة الامبراطورية" .

تبلغ مساحة هذا المسجد حوالى ستة آلاف متر مربع . ومع ان مبانيه لا تختلف عن القصور الكلاسيكية الصينية شكلا وتوزعا الا أنها مميزة بالزخارف الاسلامية الطراز . اما قاعة الصلاة فى المسجد فتواجه الشرق ، وهى تشكل مع القاعة المقابلة لها وجناحى المسجد الجنوبى والشمالى دارا مربعة مثالية (اى دار تحيط بها المبانى من الجهات الاربع وتتوسطها ساحة رحبة) . واما بوابة المسجد ، فهى مفتوحة الى الغرب ، وامامها حاجز طوبى كبير ، ووراءها برج لمشاهدة الهلال ، سداسى الاضلاع مزدوج الافاريز . وامام قاعة الصلاة اثنتان من مقصورات الانصاب الصخرية ، تنتصب احداهما فى الجنوب والاخرى فى الشمال . وتبدو مبانى المسجد منسجمة ومتناسقة ومحكمة . فهى مجموعة كاملة من المبانى الرائعة .

وتتكون قاعة الصلاة من ثلاثة مبان متراصة طولا ، وتستغرق خمس فسح عرضا . وهى تغطى مساحة قدرها اكثر من ستمئة متر مربع ، وتتسع لقرابة الف مصل فى آن واحد . ولو ألقيت نظرة على القاعة من الخارج ، لوجدتها مبنى كلاسيكيا صينيا نموذجيا بما تتميز به من الافاريز المرفوعة والتركيبات الخشبية الزاهية الالوان ، غير ان زخارفها الداخلية اسلامية الطراز تماما . وهى تثير فى النفوس شعورا بالمهابة والاجلال . ومحراب قاعة الصلاة مسقوف بمقصورة مسدسة الاضلاع مخروطية الشكل . . مميزة بالسقف الغائرى الملون من عهد اسرة سونغ (٩٦٠ — ١٢٧٩ م) . وعلى جدرانها الجنوبية

* مازال مسجد نيوجيه يحمل اسم "لى باى سى" حتى يومنا هذا خلافا لسائر المساجد التى سميت "تشينغ تشن سى" .

والشمالية نوافذ مكونة من الكتابات العربية . وفى قاعة الصلاة ثمانى عشرة دعامة وواحد وعشرون عقدا . وتظهر على عتبات العقود العليا نقوش من الآيات القرآنية والتسابيح الالهية والمدائح النبوية القوية الخطوط . . وعلى جنبات الدعامات القرمزية اللون نقوش لزهور النيلوفر المموهة بالذهب ، مما يشكل مع الثريات المعلقة فى القاعة منظرا فريدا من نوعه . وهو يبهر الابصار ويبعث على المهابة . وكان لهذه القاعة عيب متمثل فى الحرارة الخانقة التى يعانى منها المصلون صيفا والبرد القارص شتاء لشدة قدمها ، ولكن هذا العيب قد تم تفاديه بعد تزويدها بأجهزة التهوية منذ سنوات . ولو ذهبت الى الركن الجنوبى الشرقى من المسجد لألفيت نفسك امام مرقدين اخيرين للشيخ احمد البرتانى المتوفى سنة ١٢٨٠ م والشيخ عماد الدين المتوفى سنة ١٢٨٣ م ، وهما من علماء الاسلام العرب الذين جاؤوا الى الصين لنشر الاسلام . وتنتصب بجوار هذين الضريحين شاهدتان منقوشتان بكتابات عربية واضحة الخطوط حتى يومنا هذا . وهما فى نظر المسلمين المحليين من روائع الآثار الاسلامية .

ومن ضمن محفوظات المسجد لوح منقوش عليه امر ، اعلنه الامبراطور كانغشى سنة ١٦٩٤ م بخصوص المسلمين . اذ قيل انه لما وجد احد الحاقدين على الاسلام المسجد مضاء بالانوار المتألقة فى ليالى رمضان ، وشى بالمسلمين الى الامبواطور بدافع التقرب اليه ، وزعم قائلا : " ان المسامين يجتمعون ليلا ، ويتفرقون نهارا ، فيبدو انهم يستعدون للتمرد ". فتوجه الامبراطور — وهو فى بزة مدنية — الى المسجد خفية للتحقق من الامر . ولكن تبين له ان كل ما ورد فى وعظ * الامام هو من التعاليم الاسلامية الداعية الى الخير والناهية عن الشر ، فما لبث ان اصدر امرا جاء فيه : " ليكن فى علم جميع

---

* الوعظ يعنى المحاضرة الدينية التى يلقيها الامام على المصلين باللغة الصينية . وسوف يتحدث الكتاب عن هذا الاصطلاح بالتفصيل فيما بعد .

المقاطعات انه : اذا افترى احد الموظفين او الرعايا على المسلمين بالتمرد ، متذرعا بذريعة تافهة ، فلا بد من معاقبته معاقبة شديدة قبل استشارة القيادة العليا . وليتمسك المسلمون بالاسلام دون السماح لهم بمخالفة امرى هذا . . . "

وبعد تأسيس الصين الجديدة سنة ١٩٤٩ خصصت الحكومة الشعبية مبلغا لترميم مسجد نيوجيه ترميما شاملا ولكنه عانى من التخريبات الخطيرة فى هوس " الثورة الثقافية " ، كما اغلقت ابوابه اكثر من عشر سنوات . وفى سنة ١٩٧٩ اعيد ترميمه على نطاق واسع .وعبر اكثر من سنة من الاصلاحات الدقيقة تجددت ملامح هذا المسجد العريق كما كانت عليه سابقا .

الدور الثانى : عهد اسرة يوان (١٢٧١ ـ ١٣٦٨م)

لقد قامت الجاليات العربية الاسلامية ببناء عدد من المساجد ن الصين فى عهد اسرتى تانغ وسونغ ، ولكن هذه المساجد لم تكن كثيرة آنذاك . وبعد نهضة المنغوليين امتدت فتوحاتهم الى آسيا الوسطى ونظيرتها الغربية ثم الى اوربا الوسطى ، الامر الذى اوقع عامة الناس فى هذه المناطق فى هاوية الظلمات كما ترك اثره فى تنمية التبادلات الاقتصادية والثقافية بين الصين والبلاد الواقعة الى الغرب منها . وفى تلك الفترة لم يكن المسلمون المهاجرون الى الصين مقصورين على العرب والفرس بل ضموا ابناء مختلف الشعوب فى آسيا الوسطى وآسيا الغربية . وكان من بينهم عسكريون وصناع وعلماء ورجال دين . . الخ . هذا وقد تجاوز عددهم عدد المهاجرين الاولين بكثير . وباستثناء عدد قليل منهم عينوا فى مراكز عسكرية وحكومية هامة ، فان معظمهم قد اشتغلوا فى استصلاح الاراضى البور وفقا للنظام العسكرى ،

او مارسوا النشاطات التجارية والحرف اليدوية . وبعد ان تزوجوا بنساء صينيات ، تحولوا الى الجنسية الصينية بالتدريج . وفى هذه الحالة ظهر المزيد من المساجد فى كل انحاء البلاد . فقيل ان السيد شمس الدين ، احد السياسيين المسلمين ، قد تم له بناء اثنى عشر مسجدا فى شانتشان (كونمينغ اليوم) وحدها . ويعتقد بأن المساجد الباقية من عهد اسرة يوان ليست بالقليل ، ولكنها قليلا ما تذكر فى التدوينات التاريخية . فلنتوقف عند مسجدين باقيين من هذا العهد .

١ — مسجد دينغتشو

تقع دينغتشو (محافظة دينغشيان اليوم) وسط مقاطعة خبى . وهى من المناطق المأهولة بالمسلمين . ويتواجد فى شارع التحرير داخل مدينة دينغشيان مسجد قديم ، لا يعرف تاريخه بالضبط ، ولكن من المؤكد انه من عهد اسرة يوان ، ذلك ان ثلاث عشرة قطعة من الانصاب الصخرية القائمة امام المسجد تفيدنا علما بعمليات اعادة بنائه وتوسيعه فى ذلك العهد والفترات اللاحقة به . من ذلك ان الكتابات المنقوشة على نصب صخرى يعود الى سنة ١٣٤٨ م تزودنا بالمعلومات التالية : فى يوم من الايام سنة ١٣٤٣ سأل الجنرال بو المرابط فى دينغتشو اتباعه قائلا : " نحن من المؤمنين بالله فعلينا ان نعبده . . هل فى هذه الناحية مسلمون يؤمنون بالله ، ويقيمون الصلاة ؟ " فأجاب احدهم عن سؤاله بقوله : " المسلمون ينتشرون فى كل انحاء البلاد بوجه عام ، وفى هذه المنطقة بوجه خاص . وهم يقيمون الصلاة فى اوقاتها المحددة . . يمكنكم ان تجدوا مسجدا معروفا باسم ' لى باى سى ' (دار الصلاة) الى الغرب من مقر الحكومة المحلية . وهو مكان يقيم فيه المسلمون المحليون صلاتهم ، ويسبحون الله ، ويسلمون على رسوله تسليما . ولكنه مقصور على ثلاث غرف . . وليس هناك احد يعرف

متى شيد بالضبط . وحيث انه لا يتسع للمزيد من المصلين بسبب صغر حجمه ، فقد راودتهم الرغبة فى توسيع بنائه منذ عشرات السنين . غير ان صعوباتهم المالية كانت تحول دائما دون تحقيق آمالهم . وها انتم اولاء تضطلعون بحماية هذه البقعة ، فهل لكم رغبة فى مساعدتهم فى هذا الامر ؟ " " سرعان ما وضع الجنرال الامر نصب عينيه فتبرع بمائة تايل * من الذهب ، كما دعا المسلمين هناك الى التبرع بالاموال لهذا الغرض حسب قدراتهم : وعلى هذا النحو بدئ بشراء مواد البناء الضرورية ووضع المخطط . وبعد سنتين من تنفيذ المشروع تم بناء قاعة صلاة جديدة ذات ابواب حمراء وسقوف جميلة ودعامات وعوارض مزخرفة بالنقوش الدقيقة ، يا لها من قاعة صلاة رائعة ، يعجز عنها الوصف ! " وتبين لنا هذه المعلومات ان عدد المسلمين فى دينغتشو كان كثيرا ، وان حجم مسجدهم الاصلى كان بعيدا عما يجب . ولذلك حاولوا توسيع بنائه منذ زمن بعيد . ولكن محاولاتهم باءت بالفشل بسبب عجزهم اقتصاديا . ولم يلازمهم التوفيق فى ذلك الا بعد انتقال الجنرال بو الى دينغتشو . كما تبين لنا مسيرة دخول الاسلام الى الصين على يد الصحابى سعد وقاص — كما جاء فى الرواية الشائعة بين المسلمين — واحكام الاسلام واركانه واوجه الاختلافات بينه وبين الاديان الاخرى .

تشير الكتابات المنقوشة الى " ان الاسلام يقوم على اساس عبادة الله " . معنى ذلك ان الايمان بالله وعبادته هما عماد الدين . وحين تتطرق هذه الكتابات الى قبلة المسلمين تقول : بما ان المسجد الحرام فى مكة المكرمة ، قبلة المسلمين ، فعليهم " ان يوجهوا وجوههم الى الشرق وهم فى الغرب ، والى الغرب وهم فى الشرق ، والى الشمال وهم فى الجنوب ، والى

---

* تايل : وحدة نقد صينية تعادل ١٫٣٣ اونس تقريبا .

الجنوب وهم فى الشمال . . فينبغى على المصلين فى الصين ان يوجهوا وجوههم الى الغرب بسبب وقوع بلادهم فى شرق المنطقة الغربية " (يشار بها الى جزيرة العرب) . كما تشير الى " ان المسلمين يقيمون الصلوات الخمس يوميا ، ويتوضأون قبل صلاتهم سواء أكان الجو باردا ام حارا " و " يصومون رمضان كل سنة " و " يتصدقون على المحتاجين سواء أكانوا اقرباء ام غير اقرباء " يضاف الى ذلك ان الكتابات المنقوشة تقول بأن المسلمين " يوقنون بالله ويوفون بعهدهم له بأفعالهم " ، وان الاسلام " دين حق لا تشوبه شائبة " .

وقد دبج يانغ شو يى هذه الكتابات " بتوصية من الجنرال بو " وهى لا توضح بعبارات مبسطة مسيرة توسيع بناء المسجد ، بل تتحدث عن احكام الدين واركانه بصورة سليمة . ونعرف من ذلك ان الكاتب مسلم يعرف الاسلام حق المعرفة . وجدير بالذكر ان الكتابات المنقوشة على هذا النصب الحجرى اقدم من مثيلاتها على نصبى مسجد هوايشنغ (بمدينة قوانغتشو) ومسجد تشينغجينغ (بمدينة تشيوانتشو) بسنة وسنتين كل على حدة ، بل اقدم كتابات المسلمين الصينيين الباقية حتى الآن . فهى لذلك من اروع المعلومات الخاصة بدراسة تطور الاسلام فى عهد اسرة يوان .

وبعد مرور اكثر من مائة سنة على ذلك اعيد بناء المسجد مرة ثانية . ونعرف من نصب اقيم فى المسجد سنة ١٥١٢ م ان الجنرال تشن يو الذى كان يتولى رئاسة الشؤون العسكرية فى بكين قد اعجب اشد الاعجاب بفخامة المسجد حين زاره خلال مروره بدينغتشو ، وهو يقوم بجولات تفقدية فى بعض الاماكن فى عهد هونغتشى (١٤٨٨ — ١٥٠٥ م) . وقد سأل الجنرال السيد تشانغ الذى كان يرافقه فى الزيارة : " كيف يحتمل ان يبقى هذا المسجد الضخم مهملا دون ان تمد اليه يد الترميم ؟! " فأجابه قائلا : " لقد قام إمام المسجد والمسلمون هنا بتدبير امور ترميمه منذ سنوات ، ولكن

مواد البناء لم تكن متوفرة بعد . ولو كان هناك من يعينهم فى ذلك لحققوا ما يصبون اليه بسرعة . " فلاذ الجنرال بالصمت . وفور تقديمه الى البلاط الامبراطورى تقريرا عن جولاته بعد عودته الى بكين ، توجه الى مسجد بوشو الامبراطورى (الواقع فى شارع جينشيفانغ على مقربة من معبد الباغودة البيضاء ، وهو مفتوح الابواب حتى الآن) حيث سلم على اعيان المسلمين وقال لهم :" لقد شاهدت كثيرا من المساجد خلال جولتى فى كثير من المقاطعات . ولكنى وجدت مسجد دينغتشو اروع واكبر من غيره : ويمكن مقارنته مع المسجد الذى نحن فيه الآن فخامة . ومع ذلك فانه غير متكامل حتى الآن لحرمانه من التزيين والترميم . اما المسلمون هناك فقد اخذوا فى تدبير الامور منذ سنوات ، بيد انهم لم يبدأوا فى تنفيذ المشروع بعد لعدم توفر مواد البناء . فمن الضرورى ان اساعدهم فى ذلك . وحيث ان قدرتى محدودة فيسرنى ان اتباحث مع حضراتكم فى الامر " . وكان لأقواله هذه ردود فعل بين الحاضرين . " فلما تبرع الجنرال بقدر معين من الذهب للمسجد بادروا الى التبرع اقتداء به . وسرعان ما تم لهم جمع مئات التايلات من الذهب . فكلفوا واحدا منهم باحالة التبرعات الى متولى امور المسجد فى دينغتشو ، مما اتاح لهم ان يرمموا بها المسجد . اذ انهم ما ان حصلوا على معونة من الجنرال تشن وغيره حتى كثفوا جهودهم الجماعية لتنفيذ المشروع ، وراحوا يعملون آناء الليل واطراف النهار . وبعد جهود مضنية استغرقت سنة كاملة ، تجددت ملامح قاعة الصلاة ، كما تم ترميم القاعة الامامية (اى واجهة قاعة الصلاة) والمبنى الخلفى ودرجات السلالم والبوابة والممر المسقوف ، على التوالى . وبالاضافة الى ذلك غرست شجيرات السرو داخل فناء المسجد وخارجه لتجميل المكان وتظليله ، وحفرت بئر فى جنوب شرقى قاعة الصلاة لتكون مصدرا لمياه الوضوء . "

وبعد اكثر من ٢٠٠ سنة من ذلك اعيد ترميم المسجد مرة ثالثة حسب ما جاء فى كتابات النصب الحجرى الذى يرجع تاريخه الى سنة ١٧٣١ م " لقد تم بناء هذا المسجد منذ زمن بعيد ، وله مبان جميلة ، ولكن اسافل جدرانه قد تآكلت بعض الشيء . فلو اهمل الامر ، لانهدمت عاجلا او آجلا . وعلى الرغم من ان هذا الوضع واضح لكل ذى عينين ومحسوب فى كل فؤاد ، الا انه لم يكن هناك من يدعو الى ترميم المسجد . وكان من حسن الحظ ان الامام المساعد ما تشونغ ون — وهو ناضج على الرغم من صغر سنه وطيب القلب وجاد فى عمله فوق العادة — اهاب بالمسلمين ان يتبرعوا بقدر من المال لترميم المسجد سواء أ كانوا من الاغنياء ام من الفقراء . وعلى هذا النحو انجز ترميم جميع المبانى فى المسجد ، بما فيها اسافل الجدران . فبدا المسجد كأنه جديث البناء اذا نظرت اليه عن بعد ."

وصفوة القول ان مسجد دينغتشو الذى تطور على اساس ثلاث غرف قد تكامل الى ما هو عليه الآن بعد ترميمه او تجديد بنائه ثلاث مرات خلال اربعمائة سنة . ومما يستحق الذكر ان تسليط الاضواء على المساجد على نحو متسلسل فى ثلاث فترات تاريخية — يوان ومينغ وتشينغ — كما حدث لمسجد دينغتشو امر منقطع النظير فى تاريخ الصين .

وتتجلى روعة هذا المسجد فى توزع مبانيه المتناسق وعلو ادواحه المخضوضرة وكثرة انصابه الحجرية والهدوء الذى يرين عليه ، كما تتجلى فى دقة النقوش الزخرفية المخرمة على ابواب مبانيه الخشبية وجمال مختلف اشكال الثريات المتدلية من سقف قاعة الصلاة . ولكن من اشدما يلفت النظر التسابيح الالهية والمدائح النبوية المذهبة المنقوشة على المحراب القرمزى اللون .

٢ — مسجد سونغجيانغ فى شانغهاى

كانت سونغجيانغ بلدة ذات موقع استراتيجى هام فى الدفاع البحرى فى عهد اسرة يوان . وقد انتقل اليها مسلم يدعى ناصر الدين فى عهد تشيتشنغ (١٣٤١ — ١٣٦٨ م) ، ليعمل حاكما هناك . وحيث انه كان متمسكا بالاسلام ، فقد اخذ عددا كبيرا من المسلمين الى هناك . وكان عدد منهم يعملون فى الهيئات العسكرية والحكومية ، بينما كان معظمهم يمارسون الزراعة والصناعات اليدوية . وقد بنت حكومة اسرة يوان مسجدا امبراطوريا فى سونغجيانغ ، مما جعل اولئك المسلمين يعيشون هناك مطمئنين بدلا من ان تضطرب نفوسهم . هذا هو مبعث بناء مسجد سونغجيانغ القائم حتى زمننا هذا .

يقع هذا المسجد فى شارع قانغبنغهانغ من بلدة سونغجيانغ . وهو من المساجد ذات التاريخ القديم . وتشتمل مبانيه على قاعة صلاة ومئذنة ودورة مياه للوضوء وقاعة دعوة . وقد جرى ترميم هذا المسجد وتوسيع بنائه اربع مرات حسب ما جاء فى التدوينات التاريخية المتوفرة هناك ، فى سنة ١٣٩١ وسنة ١٥٨٢ وسنة ١٦٧٧ وسنة ١٨٢١ .

ويظهر على العتبة العليا لبوابة المسجد مقطعان منقوشان : " تشى جيان " (البناء الامبراطورى) . وتواجه قاعة الصلاة برج مشاهدة الهلال القائم شرقها . وهو مرفوع الافاريز . ويتظلل فناء المسجد بالاشجار الناضرة ، ويسوده هدوء مما يثير فى النفوس شعورا بالسكون والراحة النفسية . ويمكن للمرء ان يدخل الى الفناء نزولا على الدرجات الغرانيتية تحت اقدام البرج ، ثم يجد نفسه امام قاعة الصلاة العريقة عبر الفناء . وهى عريضة الواجهات ، وتتكون من ثلاثة مبان متراصة . وكانت فيها اعداد من الالواح الخشبية المزخرفة بالحواشى المنقوشة جيدا . وفى صدر كل منها كتابات صينية مموهة

بالذهب علما بأنها مخطوطة على ايدى الشخصيات المرموقة دون استثناء . وبالاضافة الى ذلك تتزين جدرانها بالكتابات العربية المموهة بالذهب . وهى تشكل زخارف متألقة ، تنعكس فيها لوذعية الحرفيين القدامى .

وتشير الكتابات المنقوشة على النصب الحجرى المقام سنة ١٦٧٧ الى ان المسلمين هناك كانوا قد لجأوا بمبادرة من ساى ين تشانغ ، الى ترميمه بما تبرعوا به من الاموال ، مما ابقاه ثابتا على الدوام . وتشير الكتابات المنقوشة على النصب الحجرى المقام سنة ١٨٢١ الى ان ما جين – احد العسكريين المسلمين – كان قد دعا الى جمع التبرعات من بين المسلمين مليما مليما ليتخذها نفقات لترميم المسجد دون ان يسمح بصرفها لأغراض اخرى فى اى حال من الاحوال . فشارك المسلمون هناك فى حملة التبرعات بحماسة ما بعدها حماسة تلبية لدعوة ذلك العسكرى المسلم . وانتهى بهم الامر الى تجديد ملامح المسجد تماما .

وقد غدا مسجد سونغجيانغ عرضة للسقوط فى عهد جمهورية الصين (١٩١٢ ١٩٤٩) . ومن اجل حماية الآثار التاريخية خصصت الحكومة الشعبية الاموال سنة ١٩٥٥ لترميمه ، مما اعاده الى الصورة التى كانت عليها . وما كان يدعو الى التألم هو انه قد تعرض للتخريبات المدمرة فى هوس " الثورة الثقافية " . ولم تجدد ملامحه الابعد ترميمه مرة اخرى سنة ١٩٨٠ . وقد ادرج هذا المسجد القديم فى قائمة الآثار التاريخية المحمية فى بلدة شانغهاى .

الدور الثالث : عهد اسرة مينغ
(١٣٦٨ ـ ١٦٤٤ م)

بدأ الاسلام ينتشر فى الصين على نطاق اوسع فى عهد اسرة مينغ ، فظهر

فيها المزيد من الم اجد . وما يزال الكثير منها قائما حتى زمننا هذا . ومن نماذجها :

١ ـ جامع هواجيويه بمدينة شيآن

كانت شيآن تحمل اسم تشانغآن ، وهى عاصمة الصين فى عهد اسرة تانغ (٦١٨ ـ ٩٠٧ م) . كما هى بداية طريق الحرير المعروف . ونظرا الى ان الصين وبلاد العرب قد حافظتا على علاقات حسن الجوار بينهما ، فقد كانت تشانغآن مقصد اعداد كبيرة من العرب الذين جاؤوا للتجارة او للاستيطان . يضاف الى ذلك ان جماعة من اهل الشيعة الهاربين من اضطهاد الامويين ، وجماعة من المسلمين العرب العسكريين الذين عاونوا اسرة تانغ فى الاطاحة بعصيان أن لو شان ، قد استوطنوا هذه المدينة . وقد عرفنا من المصادر العربية ان امبراطور الصين لى يوى من اسرة تانغ قد بنى مسجدا فى المدينة سنة ٧٦٢ م ، مما اتاح للجاليات العربية الاسلامية ان يمارسوا عباداتهم . ومع ان هذه الحادثة غير مذكورة فى المصادر الصينية ، الا ان وقوعها ممكن تماما حسب الاحوال آنذاك .

وفى شيآن اليوم بضعة عشر مسجدا وجامعا . ولكن جامع " هواجيويه " (التوعية) هو الاكبر من نوعه حجما . وقد سمى هذا الاسم لوقوعه فى زقاق هواجيويه غربى برج الطبول بالمدينة وترى فى الجامع اعداد كبيرة من الانصاب الحجرية ، ولكن تاريخ بنائه الوارد فيها متعدد . فقد صار من الصعوبة بمكان تمييز الصحيح من الخاطئ . وارجح الظن ان الانصاب الخاصة بجامع هواجيويه قد التبست بمثيلاتها الخاصة بالجوامع الاخرى التى طواها الزمان ، واختلطت اختلاط الحابل بالنابل بعد نقل انصابها الى هذا الجامع اعتزازا بالآثار الاسلامية . ومن جراء ذلك صعب على المرء تمييز انصاب جامع

هواجيويه من انصاب الجوامع البائدة مع مرور الايام .

وتقول الكتابات المنقوشة على احد الانصاب الحجرية الذى ظهر سنة ١٤٠٥ م ان الحاج ساى – وهو من ذرية السيد شمس الدين من الجيل السابع – قد امر سنة ١٣٩٢ م باعلان الامر الامبراطورى التالى : " لقد تقررت مكافأة كل اسرة من المسلمين بخمسين سبيكة من الفضة ومئة حزمة من الحرير ، وإيوائهم فى مكانين ، وبناء مسجدين لهم ، يكون احدهما فى شارع سانشان بمدينة نانجينغ ، والآخر فى زقاق تسيوو بمحافظة تشانغآن ، ويجوز لهم اعادة بنائهما اذا تهدما . ولا يسمح لأحد بالوقوف فى وجه هذا الامر . . " وقد قيل ان المسجد فى زقاق تسيوو الوارد فى هذا الامر الامبراطورى هو سلف جامع هواجيويه اليوم . ولكن فريقا من المؤرخين رأوا ان الاستنتاج على هذا النحو غير سليم ، بحجة ان زقاق تسيوو المذكور فى الامر الامبراطورى غير معروف موقعه حتى الآن ، فلا يمكن اعتباره زقاق هواجيويه اعتباطا فى اى حال من الاحوال . زد على ذلك ان مساحة مسجد تسيوو الملاحظة على قفا النصب الحجرى لا تمثل الا ثلث مساحة جامع هواجيويه اليوم . ومع ذلك فان اصحاب المقولة الاولى لم يقتنعوا بهاتين الحجتين ، اذ رأوا من جهة ان تغيير اسماء الشوارع والمدن ليس شاذا فى التاريخ ، واعتقدوا من جهة اخرى بأن امكانية ازدياد مساحة اى مسجد فى مجرى توسيع بنائه لا يمكن ابعادها . وعلى الرغم من ان المسألة المتعلقة بتاريخ بناء جامع هواجيويه ما زالت موضع جدل ، الا ان اغلبية المؤرخين يقولون ان تاريخه يرجع الى اوائل عهد اسرة مينغ .

يبدو جامع هواجيويه على شكل مستطيل . وتبلغ مساحته ثلاثة عشر الف متر مربع . وهو يشبه القصر الامبراطورى الصينى بضخامة بنائه وروعة هندسته . فلا يعتبر من اكبر الجوامع فى الصين فحسب ، بل يعد من كنوز

الفن المعمارى الصينى . ويتكون هذا الجامع من اربع دور متراصة ، تتوزع فيها اربع وثمانون غرفة من المبانى الرئيسية والاضافية توزعا متناسقا ، مما يشكل مجموعة كاملة من البنايات . وللدار الاولى بوابتان جانبيتان ، تواجه احداهما الجنوب ، بينما تواجه الاخرى الشمال . وتجد فى موقع بوابة الجامع حاجزا زخرفيا من الطوب ، ارتفاعه اكثر من عشرة امتار ، وعرضه عشرون مترا . والى الداخل من الحاجز الزخرفى يقوم قوس خشبى منقوش جيدا . وهو يواجه قاعة مرور مؤدية الى الدار الثانية التى ينتصب فيها قوس ومقصورتان لاستيعاب الانصاب الحجرية ، تقع احداهما يمينا ، وتقع الاخرى شمالا . وللدار الثانية بوابتان ايضا ، شأنها شأن الدار الاولى . وهنالك قاعة مرور مؤدية الى الدار الثالثة التى ينتصب فى صدارتها برج شاهق معروف باسم " شينغشين " (تهذيب النفس) ، وعلى جانبيها جناحان جنوبى وشمالى . ولو دخلت فى الدار الرابعة ، للفت نظرك " جوسق العنقاء " الخماسى الاقسام الرائع الهندسة . وهو يواجه قاعة الصلاة الضخمة والبعيدة عنه ، مما يرمز الى " مواجهة العنقاوات الخمس للشمس " . اما قاعة الصلاة فتستوعب الف مصل فى آن واحد . وهى صفوة مبانى الجامع برمتها . كما هى مرآة الفن الزخرفى المسجدى فى المناطق الداخلية من الصين . وعلى جدرانها نقوش خشبية من الكتابات العربية والازهار الجميلة ، تعطى مع ابوابها وشبابيكها الدقيقة النقش منظرا خلابا . ويتكون سقف القاعة مما يزيد عن ستمئة قطعة من المربعات الملونة ، وفى صدارة كل منها كتابات عربية تحيط بها الرسوم الصينية التقليدية من كل الجهات . واشدما يلفت النظر هنالك مقصورة المحراب وراء عمودين بلون قرمزى ، نقشا بكتابات عربية مموهة بالذهب ، اضافة الى ان المربعات الخشبية فى اعلى العمودين المذكورين آنفا وعتبة المقصورة العليا ومتدلياتها الخشبية مطعمة بزخارف من كافة الالوان . والمحراب البادى على شكل

عقد مخمس ليس مزخرفا بالكتابات العربية فحسب ، بل يزدان بالرسوم الصينية الطراز . ويعتبر ذلك خير خليط بين الفن الزخرفي الاسلامي ونظيره التقليدى الصينى . وأمام قاعة الصلاة رصيف فسيح محاط بالدرابزينات الصخرية المخرمة الشهيرة بدقة نقوشها . وتجد فى الركن الجنوبى الشرقى من الرصيف صخرة غريبة مثلثة الشكل على نحو غير منتظم ، قيل انها محك لنزاهة الموظفين والمسؤولين . فاذا دق اى موظف نزه المسمار عليها تسمر فورا . والطريف ان على سطحها اكثر من مائة مسمار ، تنتصب تمام الانتصاب . وفى الركن الشمالى من الرصيف صخرة سميت " الفأرة البيضاء " لأنها تبدو كفأرة بيضاء حية عند النظر اليها عن بعد . كما ان فى ركن الرصيف الشمالى الشرقى ساعة شمسية مصنوعة من لوح حجرى مستطيل ، وفى وسط سطحه حفرة مستطيلة لاثبات المزولة . وبالاضافة الى ذلك ترى على سطح اللوح الحجرى ثلاثة صفوف من الثقوب المستطيلة ، تستعمل فى معرفة الوقت حسب الظلال التى ترميها المزولة عليها . وجدير بالذكر ان اللوح الحجرى مثبت على قاعدة صخرية مرتفعة اكثر من متر تحته ، فهو قابل للتكييف حسب الحاجة . وتفيدنا مدونات الفلكى الصينى الكبير مى دينغ جيو (١٦٣٨ — ١٧٢١ م) بأن المساجد الصينية جميعها آنذاك كانت تزهو بالساعات الشمسية المماثلة لها . ولكن ما بقى منها حتى الآن نادر جدا .

وبفضل ضخامة مبانى جامع هواجيويه وكثرة آثاره التاريخية فقد ادرج فى قائمة اهم الآثار المحمية على نطاق البلاد ، كما اصبح مزارا هاما يرتاده السائحون الذين يقصدون شيآن للمرة الاولى . وبعد ان قامت الصين منذ سنوات بتطبيق سياسة الانفتاح على الخارج ، توارد الى جامع هواجيويه جماعات جماعات من الضيوف الاجانب مظهرين اعجابهم الشديد به . وكان من بينهم رؤساء دول وحكومات وموظفون كبار كثيرون . ولما قام السيد فهمى هويدى

احد العلماء العرب المرموقين بزيارة جامع هواجيويه عام ١٩٨٠ قال متعجبا : " انها لمفاجأة حقا ان يكون هذا الجامع الصينى بهذه الفخامة ، وان يكون المصلون فيه بهذا الحجم الكبير . والاهم من ذلك ان اكثر المصلين من الشباب ، وهذه هى المفاجأة الكبيرة . " وكفى بتعليقاته هذه دليلا على عظمة هذا الجامع العريق ، وعلى احتفاظه بالازدهار الدائم على كر العصور .

٢ ـ مسجد دونغسى فى بكين

لقد كانت بكين ومازالت مركز الصين سياسيا واقتصاديا وثقافيا ، كما عرفت بوصفها واحدة من اشهر المدن الثقافية فى العالم . لقد هاجر المسلمون الى بكين منذ الزمن القديم بحكم وجود مسجد نيوجيه الذى سبق ذكره فى الدور الاول من هذا الفصل . وفى الوقت الذى قام فيه الامبراطور يونغله بنقل عاصمة الصين من نانجينغ الى بكين سنة ١٤٢١ م كان من مرافقيه كثير من المسلمين الى جانب عشر اسر مسلمة كانت مكلفة بحماية الاسرة الامبراطورية خلال الانتقال . ونتيجة لذلك ظهر فى بكين المزيد من المساجد ، ومن ضمنها مسجد دونغسى موضوع حديثنا .

وقد سمى هذا المسجد بهذا الاسم لوقوعه على مقربة من " دونغسى بايلو " (الاقواس الشرقية الاربعة) . ومن محفوظات المسجد نصب حجرى نقش عليه « المسجد الامبراطورى » . وعلى الرغم من ان الكتابات المنقوشة عليه قد غدت غامضة ، الا ان المطبوعات عليه واضحة بالامعان والتدقيق . فتعرف منها ان مسجد دونغسى قد تم بناؤه سنة ١٤٤٧ م على حساب الجنرال المسلم تشن يو وحده الذى قدم يد المساعدة لترميم مسجد دينغتشو كما ذكرنا سابقا . وجدير بالذكر ان موطن هذا الجنرال الاصلى فى بلاد العرب ، وتولى منصب نائب قائد قوات الجناح اليسارى ووالى منطقة هوقوانغ (مقاطعات

هوبى وهونان وقوانغدونغ ومنطقة قوانغشى الذاتية الحكم اليوم) اعتبارا من سنة ١٤٥٧ م بصورة متزامنة . وقد منح لقب شرف فى السنة ذاتها . وكان يتقاضى الفا ومئة دان (الدان يساوى هكتولتر) من الحبوب سنويا ، كما كان لذريته الحق فى التمتع بلقب الشرف المماثل وتسلم الراتب المماثل حتى سقوط اسرة مينغ الامبراطورية . فيمكن اعتبار اسرة تشن يو من اصحاب الحسب جيلا بعد جيل ، وذلك حسب ما ورد فى « سيرة تشن يو » فى كتاب « تاريخ اسرة مينغ » . وقد كان الجنرال تشن يو شديد التحمس للاسلام باعتباره عسكريا مسلما . والدليل على ذلك انه كان قد اخذ على عاتقه بناء المساجد مدى حياته ، وقد تبعه فى ذلك اولاده واحفاده ، فحذوا حذوه بحيث اسهموا بقسط معين فى بناء المساجد . ومع ان ما قدمه العسكريون والحكوميون فى عهد اسرة مينغ من الاسهامات فى بناء المساجد كثيرة ومدونة فى السجلات التاريخية ، الا ان الجنرال تشن يو الذى تحمل تكاليف بناء المسجد كاملة ، واثرت افعاله الحميدة هذه فى ذريته ، يظل حالة لا مثيل لها مطلقا فى تاريخ الصين .

وبفضل سمو مكانة الجنرال تشن يو وكثرة امواله ، فقد كان مسجد دونغسى المبنى على حسابه فخما فوق العادة . ولا يتمثل هذا فى فخامة مبانيه وروعة هندستها فحسب ، بل يتمثل ايضا فى امتيازه ، فى عهد اسرة مينغ ، بالحماية الاستثنائية القانونية وما زاد المسجد شرفا هو ان يحمل المقاطع الصينية الثلاثة : " تشينغ تشن سى " (متعبد الصفاء والحق) التى خطها الامبراطور تشو تشى يوى الذى تلقب بداى تسونغ سنة ١٤٥٠ م .

يتكون مسجد دونغسى من دارين متلاصقتين . اما الدار الامامية ، فهى صغيرة الحجم ، يقوم على جانبيها جناحان متوازيان ، يستعمل احدهما للوضوء والآخر للادارة . والى الغرب من هذه الدار قاعة مرور مؤدية الى الدار

الخافية الكبيرة المساحة ، وهى مظللة بأشجار الصنوبر والسرو المخضوضرة ومزدانة بالازهار الزاهية الالوان . وهناك جناحان جنوبى وشمالى وهما على احسن ما يكون من الانسجام . اما قاعة الصلاة المتربعة فى غرب هذه الدار ، فتبلغ مساحتها ٤٨٠ مترا مربعا ، وهى واسعة ومضاءة ومزخرفة عوارضها ودعاماتها بالنقوش المزركشة المثيرة للاعجاب بألوانها المتألقة . يضاف الى ذلك ان مقصورة المحراب المميزة بفنون العمارة العربية غائرة السقف وخالية من العوارض ، وان عقد المحراب والعارضة الرئيسية لقاعة الصلاة تعلوهما نقوش بديعة من الآيات القرآنية المنسقة الخطوط المموهة بالذهب . وهذه كلها تضفى على القاعة جمالا وجلالا لا مثيل لهما .

وليس مسجد دونغسى مجرد مركز لممارسة العبادات ، بل هو مركز للتعليم الحديث لمسلمى الصين . ويدل على ذلك ان المثقف المسلم تشنغ شى شنغ ، وهو من مواليد مقاطعة هوبى ، قد اسس فيه مدرسة اسلامية ثانوية سنة ١٩٢٦ م . . وان مدرسة تشنغدا للمعلمين ، تلك التى اسسها الشيخ عبد الرحيم ما سونغ تينغ فى جينان عاصمة مقاطعة شاندونغ ، قد انتقلت اليه سنة ١٩٢٩ م . يومها كانت اصوات القراءة تتردد اصداؤها فى كل جنباته ، مما زاده حيوية ونشاطا . وبعد ان تأسست فيه مكتبة فؤاد الاول (وهى مكتبة انشئت بدعم من الملك المصرى المذكور وشخصيات من مختلف القطاعات الصينية) ومجلة " نضرة الهلال " الاسلامية ودار النشر التابعة لمدرسة تشنغدا على التوالى ، اصبح هذا المسجد مركزا اسلاميا ثقافيا وتعليميا للصين كلها . ولما نشبت حرب المقاومة ضد اليابان سنة ١٩٣٧ م كان لا بد من انتقال مدرسة تشنغدا الى قويلين بمقاطعة قوانغشى . فتدهور وضع مسجد دونغسى تدريجيا فى ظل حكم الغزاة اليابانيين . ولم يستعد حيويته الا بعد افتتاح معهد الدراسات الاسلامية فيه على يد الشيخ عبد الرحيم ما سونغ تينغ

الذى عاد الى بكين عقب انتصار حرب المقاومة ضد اليابان . وقد تم ترميم هذا المسجد على نطاق واسع مرتين ، سنة ١٩٥٢م وسنة ١٩٧٤ م .

لقد اجتاز مسجد دونغسى عددا من الامتحانات فى التاريخ واحدا تلو الآخر خلال خمسة قرون مضت . وعلى الرغم من اغلاق ابوابه خلال "الثورة الثقافية" فترة قصيرة ، الا ان تأثيراته الكبيرة على الصعيد العالمى ادت الى فتح ابوابه من جديد فى حين ان سائر المساجد فى الصين ظلت حينذاك مغلقة الابواب دون استثناء . ويمكننا القول بأن هذا المسجد كان الاستثناء الوحيد فى تلك الفترة العصيبة .

٣ ـ مسجد بوتشن بمدينة بوتو

تقع مدينة بوتو على ضفة القناة الكبرى فى مقاطعة خبى . وقد عرف المسجد هناك بفخامة مبانيه وروعة هندستها المعمارية . وقيل انه بنى فى عهد هونغو (١٣٦٨ ـ ١٣٩٨ م) ولم يكتمل بناؤه كما نراه اليوم الا بعد ترميمه وتوسيع بنائه مرارا . وهناك رواية تقول ان توه توه ـ رئيس الوزراء فى اواخر عهد اسرة يوان كان مبعوثا من البلاط الامبراطورى الى منطقة نانجينغ للحصول على مواد البناء اللازمة لبناء القصر الامبراطورى فى دادو (بكين اليوم) . وعندما كانت ناقلات مواد البناء تمر تحت اشراف توه توه بمدينة بوتشن على ضفة القناء الكبرى اصبحت العاصمة على مرمى جحافل الانتفاضة بزعامة تشانغ يوى تشون وهو دا هاى ، وهما من قادة قوات تشو يوان تشانغ الذى اعتلى عرش الامبراطورية فيما بعد ، وحيث ان توه توه (وهو مسلم من المنغول) كان قد ادرك ان حكم اسرة يوان قد اصبح قاب قوسين او ادنى من السقوط ، فقد قرر بناء مسجد هناك بتلك المواد المعمارية المنقولة . واصبح ذلك المكان ملجأ له ولأفراد اسرته بعد ان اطلق عليها لقب

اسرة " شى " بدلا من اللقب المنغولى للتكيف مع عادات الاهالى هناك . اما الآن وبعد ستمئة سنة من التناسل ، فقد تحولت هذه الاسرة المستوطنة الى اسرة مسلمة كبيرة فى بوتو .

يشغل مسجد بوتشن مساحة قدرها ١١٢٠٠ متر مربع . وقد بنيت بوابة المسجد على غرار بوابة " الهاجرة " فى القصر الامبراطورى ببكين . فهى فى غاية الروعة والجمال . وعلى جانبى البوابة سوران زخرفيان على شكل " ٨ " ، وهما مبنيان من النقوش الطوبية الكلاسيكية . ويظهر على كلا السورين المذكورين باب جانبى ، له مصراعان قرمزيا اللون ومدقات معدنية . ويتكون هذا المسجد من دارين متلاصقتين امامية وخلفية . وفى وسط الدار الامامية برج لمشاهدة الهلال ، يبلغ ارتفاعه قرابة عشرين مترا . وهو يطل على جناحيها الجنوبى والشمالى اللذين يستغرق كل منهما خمس فسحات . وعند مدخل الدار الخلفية تجد جوسقا زخرفيا مميزا بسمات الجواسق الخشبية فى عهد اسرة مينغ ، وهو فى حد ذاته ممر مسقوف يؤدى الى صحن فسيح فى الدار الخلفية . وعلى كلا جانبيه عشر غرف لتدريس علوم الدين . وتقوم غرب الدار الخلفية قاعة صلاة ضخمة ، تتكون من ثلاثة مبان متلاصقة ، يبلغ طولها خمسة وخمسين مترا ، وعرضها تسعة وعشرين مترا . ويتجلى جمال هذه القاعة فى افاريزها المرفوعة ومقصورتيها المنزويتين المتقابلتين ، كما يتجلى فى العلية السداسية الاضلاع المنتصبة على سطحها ، وفى سقفها المزخرف بالرسوم الزاهية الالوان . وهذه العناصر كلها تزيد من روعة القاعة الى حد بعيد . وجملة القول ان مسجد بوتشن مميز بخصائص القصور التقليدية الصينية المتمثلة فى التناسق والانسجام والهيبة والوقار ، وهو عبارة عن مجموعة كاملة من المبانى التقليدية . وعلى الرغم مما كابده من التخريبات الجسيمة خلال " الثورة الثقافية " ، الا ان معظم مبانيه الاصلية ظلت بمنجاة عن ايدى

المدمرين . وقد تم ترميمه الآن ، كما ادرج فى مصاف الآثار التاريخية المحمية على نطاق مقاطعة خبى .

٤ ـ جامع عيد كاه بمدينة كاشغر

تقع مدينة كاشغر فى غربى منطقة شينجيانغ الويغورية الذاتية الحكم . وقد ترك القائد العربى المعروف قتيبة بن مسلم الباهلى آثار قدميه فيها سنة ٧١١ م ، فأصبحت مركزا اسلاميا ذائع الصيت للدانى والقاصى . اما " عيد كاه ". فهى كلمة مركبة من العربية والفارسية وتحمل معنى " مكان اجتماع فى الاعياد " . وتبلغ مساحة جامع عيد كاه الواقع فى شمال غربى ميدان عيد كاه فى قلب مدينة كاشغر اكثر من سبعة عشر الف متر مربع . انه الاكبر من نوعه فى الصين . حتى ليقال ان من عاد من شينجيانغ دون ان يزور جامع عيد كاه ، فقد عاد بخفى حنين . ونعرف من ذلك مدى تأثيره ومكانته .

وقد قيل انه لما دفن جثمان سكسير مرزان الذى كان حاكم كاشغر فى قلب المدينة اليوم بعد وفاته سنة ١٤٢٦ م ، بنى مسجد صغير بجانب قبره . واصبحت هذه البقعة مقبرة عامة لحكام كاشغر ويارقند فيما بعد . وفى سنة ١٧٨٨ م تم توسيع بناء المسجد الصغير بتبرعات سيدة مسلمة تدعى قوليريرا ، واطلق عليه منذ ذلك الوقت اسم " عيد كاه " ، اما فى سنة ١٨٠١ م ، فقد كان هناك سيدة مسلمة اخرى تدعى بورويز بيار ، اعدت نفقات سفرها الى مكة المكرمة لأداء فريضة الحج ، ولكن نيران الحرب اعترضت طريقها ، فأضطرت الى العودة من حيث اتت ، ثم تبرعت بنفقات سفرها لاعادة بناء المسجد ، كما وقفت اربعين هكتار من الارض عليه . وبعد فترة من ذلك قام المسلمون هناك بحفر بحيرة اصطناعية وشق ترع وغرس

شجيرات لتجميل المنطقة المحيطة بالجامع . وفى سنة ١٨٧٦ م اضيفت الى الجامع دورة مياه للوضوء ومنارة وحجرات للدراسة والسكن ، من شأنها استيعاب اربعمئة دارس ، كما بنيت قبة على سطح قاعة الصلاة ، الامر الذى زاد من روعة الجامع الى حد كبير . وحين ضربت الزلازل مدينة كاشغر سنة ١٩٠٠ م ، تعرض جامع عيد كاه لدمار شديد ، فلجأ المسلمون هناك الى جمع التبرعات لاعادة بنائه . اما المنارتان اللتان تنتصبان على جانبى بوابة الجامع حاليا ، فقد تم بناؤهما فى اثناء ذلك بالضبط . وبعد تأسيس الصين الجديدة قدمت الحكومة الشعبية الاموال اكثر من مرة لترميم جامع عيد كاه وتنظيف بحيرته الاصطناعية من الطمى وزيادة التشجير حوله . وفى الوقت ذاته دخل هذا المسجد فى مصاف اهم الآثار المحمية على مستوى منطقة شينجيانغ الويغورية الذاتية الحكم .

وتكتسى بوابة الجامع باللون الاخضر الخفيف ، كما تزين اعاليها نقوش بديعة ، وتظهر على عقديها العلويين آية من الذكر الحكيم مكتوبة بخط تعليق ، ويرتفع برج البوابة الطوبى الاحمر اثنى عشر مترا فوق اديم الارض ، ويزخرف على اعاليه وجانبيه بمشكات معقوفة ذات حواش بيضاء تسر الناظرين بمهابتها وروعتها . اما المنارتان القائمتان على جانبى البوابة ، فقد بنيتا من الطوب ، وتبدوان على شكل اسطوانة ، وترتفعان ثمانية عشر مترا ، وعلى كلتا قمتيهما علامة هلال . وتتجاوب هاتان المنارتان مع نظيرتهما فوق قبة قاعة الصلاة فيما وراء البوابة لابراز مزايا المبانى الاسلامية .

وتشتمل مبانى الجامع الرئيسية على قاعة الصلاة وما وراء الدرابزينات من حجرات دراسية وسكنية . اما قاعة الصلاة فتنقسم الى ثلاثة اجزاء ، قاعة داخلية وخارجية وسقيفة امامية . وهى تغطى مساحة قدرها الفان وستمئة متر مربع ، وتستوعب خمسمائة مصل فى آن واحد . وتقوم قاعة الصلاة على ١٥٨

عمودا ، مزخرفة جميعها بالنقوش الخفيفة الخضرة ، ومختلفة اشكال تيجانها بعضها عن بعض . ولو ارسلت بصرك الى سقف قاعة الصلاة لوجدته على شكل لوحة الشطرنج لتقاطع صفوف دعاماتها طولا وعرضا . وبالاضافة الى ذلك تظهر فى نواحى السقف الغائرة الى الاعلى رسوم ازهار ملونة ، مما يضفى على السقف منظرا جميلا اخاذا .

ولو حل عيد الفطر او عيد الاضحى ، لوجدت المسلمين يتدفقون سيولا باتجاه جامع عيدكاه . وهناك فريق من المسلمين من عادتهم الا يغادروا مواقع صلاتهم بعد صلاة الفجر ، اذ يتربعون على سجاجيدهم مخافة ان تفوتهم فرصة اداء صلاة العيد داخل الجامع لشدة ازدحام المصلين آنذاك . اما الذين يتأخرون عن الحضور فلا يجدون بدا من اقامة صلاتهم فى ميدان خارج الجامع او فى الشوارع المجاورة ، بل حتى على سطوح المبانى ؛ ذلك ان عدد المقبلين على جامع عيد كاه لأداء صلاة العيد يتراوح من ستين الى سبعين الف شخص فى اغلب الاحيان . وبعد انتهاء صلاة العيد تجد المسلمين البارعين فى الرقص والغناء من مختلف القوميات يرقصون ويغنون فى الميدان على الالحان الرخيمة تهليلا للعيد المبارك بحماسة ما بعدها حماسة . وجدير بالذكر ان الاحتفال بالاعياد الاسلامية بالرقص والغناء كما يظهر فى شينجيانغ تقاليد لا مثيل لها فى بقية انحاء الصين .

٥ ــ المسجد الشمالى فى بلدة تشوشيانتشن

تعتبر تشوشيانتشن من بلدات الصين الاربع المعروفة فى التاريخ ، وتقع فى جنوب غربى مدينة كايفنغ التى كانت عاصمة الصين فى عهد اسرة سونغ الشمالية (٩٦٠ ــ ١١٢٧ م) . ونظرا الى الازدهار الثقافى الذى تحلت به تلك البلدة فى قديم الزمان ، فانها غنية بالآثار التاريخية ، كما انها مكان

يكثر فيه المسلمون الى حد ما . وفى بلدة تشوشيانتشن اليوم سبعة مساجد ، من بينها مسجدان للنساء ، علما ان المسجد الشمالى هناك هو الاقدم والاكبر من نوعه . وقد بنى هذا المسجد سنة ١٥٣١ م ، وهو يشغل مساحة قدرها تسعة آلاف متر مربع . وهناك تمثالان لأسدين صخريين يربضان امام بوابة المسجد حارسين له ، وهناك ايضا جدار على شكل " ٨ " يمتد على جانبى البوابة بانحدار . وتقوم البوابة على اثنى عشر عمودا صخريا منقوشا بدقة بالغة . وقد علق على عقدها العلوى ثلاثة ألواح خشبية منقوشة بكتابات مموهة بالذهب . ويرى على اللوح الاوسط كلمات " كه شو تشينغ تشن " (تمسكوا بالشريعة الاسلامية) ، وعلى اللوح الثانى كلمات " تشى جياو تشن يوان " (دين الله . . مصدر الحق) ، وعلى اللوح الثالث كلمات " تشى تشنغ وو شى " (الايمان الثابت غير القابل للزعزعة) وما زالت هذه الالواح الثلاثة مصونة حتى زمننا هذا . ووراء البوابة مقصورتان تختص احداهما باستيعاب الانصاب الحجرية المنقوشة باللغة الصينية ، وتختص الاخرى باستيعاب مثيلاتها المنقوشة باللغة العربية . ولو دلفت الى الغرب مرورا بالمقصورتين المذكورتين ، لوجدت نفسك فى فناء مستطيل فسيح ، وعلى كلا جانبيه عشر غرف مميزة بالممرات المسقوفة فى واجهاتها ، وبالبنايات الاضافية فى مؤخرها وهى مخصصة للتدريس الدينى والتدريب الرياضى . ويواجه البوابة من الغرب مبنى المسجد الرئيسى ، قاعة الصلاة المرتفعة عشرين مترا . وتمتاز بالسقيفة فى واجهتها ، وبمقصورة المحراب فى مؤخرها ، الى جانب زهوها بجناحين جنوبى وشمالى . وتبلغ المساحة الاجمالية لهذه القاعة الفا وواحدا وثلاثين مترا مربعا . ودعاماتها وعوارضها مزخرفة بالنقوش والرسوم الرائعة ، وسطوحها مغطاة بالقرميد المطلى بالزجاج الاخضر . ولا تبدو على تسنيمة سقفها نقوش حيوانية الشكل فحسب ، بل تظهر على افاريزها المرفوعة

نقوش من التنانين والعنقاوات ، مما يشير الى عراقة القاعة . ولا تفوتنا الاشارة الى ان الاناء الزخرفى النحاسى المتألق والمرتفع اكثر من مترين فى اوسط تسنيمة سقف القاعة ، والنقوش المخرمة الشبيهة بالحراشف السمكية على حواجز القاعة الخشبية ، تسر الناظرين بما تتميز به من اسلوب فريد . وتعتبر مبانى هذا المسجد اكبر مجموعة من المبانى المخلفة من قديم الزمان فى مقاطعة ختان . وفى سنة ١٩٨٤ تم ترميم هذا المسجد وادرج فى عداد اهم الآثار التاريخية المحمية على مستوى المقاطعة .

٦ ــ الجامع الشرقى بمدينة جينينغ

عرفت مدينة جينينغ بسهولة مواصلاتها ووفرة منتجاتها منذ القدم . وهى مركز تجارى فى جنوب غربى مقاطعة شاندونغ . وفيها نشأ مذهب " شاندونغ " للتعليم الاسلامى الصينى . فقد احتلت مكانة هامة فى تاريخ التعليم الاسلامى الصينى . وفى هذه المدينة ثمانية مساجد ، اشهرها الجامع الشرقى موضوع حديثنا . وقد بنى هذا الجامع فى عهد هونغوو (١٣٦٨ ــ ١٣٩٨ م) . وتبلغ مساحته العمرانية ٤١٣٤ مترا مربعا . وقد جرت العادة فى بادئ الامر على تسميته جامع " شونخه " (محاذاة القناة) لوقوعه على ضفة القناة الكبرى ، ثم عرف باسم " الجامع الشرقى " لوقوعه الى الشرق من سائر المساجد هناك .

ويواجه هذا الجامع الشرق . ولدى مدخله سقيفة خشبية قائمة بين جدارين منحدرين على شكل " ٨ " . . وبداخل السقيفة قوس صخرى معروف بدقة نقوشه وروعتها . وقد سمى " قوس القمرين " لزخرفته بصورة القمر يمينا وبصورة الشمس يسارا . وبالاضافة الى ذلك فان هناك قوسين خشبيين متناسقين منتصبين على طرفى القوس الصخرى المذكور ، يشكلان معه حاجزا مستقيما . ويواجه القوس الى الغرب بوابة المسجد التى يبلغ عرضها ثلاث

فسحات . ويكتسى سقفها بالقرميد المطلى بالزجاج القاتم الخضرة ، مما زادها بهاء . ولبوابة المسجد عمودان ، زخرفت جنباتهما بنقوش من التنانين النابضة بالحيوية . والى الداخل من البوابة تجد صفين من حجرات مخصصة للدعوة الاسلامية ، يقوم احدهما فى شمال فناء المسجد والآخر فى جنوبه . وبالاضافة الى ذلك فان هناك مبنى مقببا متعدد الكورنيشات ، ومتميزا بأسلوب عمارة خاص به ، وهو ينتصب فى قلب الفناء بخيلاء . اما قاعة صلاة المسجد المتربعة فى غربى الفناء ، فهى مبنى فاخر من طراز القصور الصينية التقليدية . وهى مسقوفة بالقرميد المطلى بالزجاج الاصفر والاخضر ، وترى على تسنيمة سقفها نقوش نافرة من التنانين . وعلى اطراف سطحها كورنيشات متعددة الطبقات متعالية الى الفضاء ، وفى وسط التسنيمة اناء زخرفى من النحاس المذهب المتوهج . زد على ذلك ان جميع نوافذ القاعة مشكلة من الكتابات العربية المنقوشة ، وهى انعكاس لمهارة النحاتين الفائقة ولما تميز به الفن الزخرفى الاسلامى فى آن واحد . وتقوم هذه القاعة المكونة من عدة مبان متراصة على عشرين عمودا ، يقاس قطر دائرة كل منها بأذرع شخصين ، مما اضفى على هذه القاعة سيماء القصور التقليدية الصينية الواسعة والشامخة . اما برج مشاهدة الهلال القائم خلف قاعة الصلاة ، فهو مبنى سداسى الشكل من طابقين ، يفوق سائر المبانى فى المسجد علوا وزهوا . ولو دلفت الى بوابة المسجد الخلفية للفت نظرك عموداها الصخريان اللذان نقشت جنباتهما بزوج من العنقاوات المرفرفة النابضة بالحيوية ، وهى تشكل مع نقوش التنانين على عمودى البوابة الامامية مشهدا متباينا فريدا من نوعه . ولذلك فقد قيل بأن الجامع محروس بالتنين من الامام وبالعنقاء من الخلف . ولا يتميز هذا الجامع بروعة تخطيطه وضخامة بنائه فحسب ، بل انه مظلل بأشجار الصنوبر والسرو . فما من احد زاره الا شعر بهيبة لا مثيل لها . وقد دخل الجامع

الشرقى فى مصاف اهم الآثار التاريخية المحمية على مستوى مدينة جينينغ .

الدور الرابع : فى عهد اسرة تشينغ
(١٦٤٤ ـ ١٩١١ م)

على الرغم من ان اسرة تشينغ كانت تنتهج سياسة ابعاد الاسلام ، الا انها لجأت فى بعض الاحيان الى تكتيك استمالة المسلمين ، انطلاقا من حاجتها السياسية اليهم . وفى ظل هذا الوضع ظهر عدد كبير من المساجد فى مختلف انحاء البلاد . واود التعريف فيما يلى أربعة نماذج من تلك المساجد التى شيدت فى تلك الفترة :

١ ـ جامع تونغشين

تقع محافظة تونغشين فى المنطقة الجبلية الجنوبية بنينغشيا . ويمثل المسلمون فيها ٨٠٪ من مجموع سكانها . ويتواجد اليوم فيها اكثر من ثلاثمئة مسجد ، علما ان جامع تونغشين الواقع فى مركز المحافظة هو الاكبر والاقدم من نوعه . وقد بنى هذا الجامع فى زمن غير معروف . ويعتقد بأن تاريخه يرجع الى عهد اسرة تشينغ على وجه التقريب . وتفيدنا التدوينات التاريخية بأن منطقة نينغشيا قد شهدت انتفاضة مسلحة شارك فيها عشرات الآلاف من الثوريين المسلمين بتأثير من ثورة مملكة السلام السماوية (١٨٥٣ ـ ١٨٦٤ م) . وكان جامع تونغشين مقرا لقيادة الثوريين المسلمين بزعامة يانغ شنغ شيانغ ، على خط النار . وقد انهدم الجامع بحرائق متعمدة على ايدى القوات المسلحة الحكومية بعد احتلالها مدينة تونغشين سنة ١٨٦٥ م . وبعد

اربعين سنة من ذلك قام المسلمون هناك باعادة بنائه اعتمادا على تبرعاتهم ، الامر الذى جعله يحتفظ بملامحه الاصلية المبدئية . ولكن زخارفه الجديدة اقل روعة من زخارفه الاصلية .

ينتصب الجامع على مصطبة يبلغ ارتفاعها سبعة امتار ، وهى مكسوة بالطوب الازرق الضارب الى السمرة . ويبدو الجامع فى منتهى المهابة والروعة لارتفاع موقعه . اما مبانيه الرئيسية فتشتمل على قاعة صلاة وجناحين جنوبى وشمالى ومئذنة . وتفتح بوابته الى الغرب . وقبالته حاجر زخرفى من الطوب ، نقش عليه رسم جميل تحت عنوان « القمر بين اشجار الصنوبر والسرو » وعلى جانبيه عبارتان متوازيتان ، احداهما فى تسبيح الله ، والثانية فى الصلاة على نبيه المصطفى .

ومع ان جامع تونغشين اصغر حجما من سائر الجوامع فى الصين ، الا ان زخارفه المعمارية لها سماتها الخاصة . فأنت ترى على جملون قاعة الصلاة اليسارى مثلا نقوشا دقيقة وممتعة ، تصور ادوات الكتابة الاربع (القلم والحبر والورق والمحبرة) وطقم الشاى وازهار البرقوق وعود الصليب واللوطس واشجار الصنوبر والسرو ودالية العنب وشجيرات البامبو . . الخ . اما ابواب قاعة الصلاة ونوافذها الخشبية فهى تسر الناظرين ايضا بما تزهو به من الزخارف الجميلة . من ذلك ان ستة عشر ضلفا من ابواب القاعة المخرمة مميزة بأربعة انواع من الشعريات ، مما يجيز لنا القول بأن هذه الابواب من روائع الصناعات الفنية الى جانب قيمتها الاستعمالية . وذلك يزيد من رونق القاعة الى حد كبير . ومع ان قاعة الصلاة عتيقة وبسيطة وخالية من الزخارف المبرقشة ، الا ان حسن اضاءتها ونظافتها تشرح الصدور .

ولا يعتبر جامع تونغشين مجرد متعبد مفضل للعابدين ، بل له قيمته الاثرية الثورية ، اذ اعلن فيه عن تأسيس حكومة محافظة يوهاى الذاتية الحكم

لقومية هوى سنة ١٩٣٦ بمساعدة الجيش الأحمر للعمال والفلاحين . وما ان تحررت هذه البقعة حتى ادرج الجامع فى قائمة اهم الآثار المحمية ، ونتيجة لذلك فقد صار فى مأمن من التخريب ، حتى فى هوس " الثورة الثقافية " . ومنذ تطبيق سياسة الانفتاح على الخارج فى الصين استقبل جامع تونغشين عددا كبيرا من البعثات الاسلامية والاخوة المسلمين من مختلف البلدان ، والذين عبروا عن سرورهم الشديد بنجاته من التخريب الجسيم بأعجوبة .

٢ — جامع هوهيهوت

هوهيهوت عاصمة منطقة منغوليا الداخلية ذات الحكم الذاتى حيث تقوم ثمانية مساجد . فأقدمها واكبرها هو جامع هوهيهوت خارج بوابة المدينة القديمة الشمالية . وقد بنى سنة ١٧٨٩ م .

عرفت مبانى جامع هوهيهوت بفخامتها وروعة هندستها . اما قاعة الصلاة فيه فمن طراز القصور الصينية ، تعلوها خمس مقصورات جميلة ، سداسية الشكل ، متفاوتة الارتفاع ، مما جعلها تتفرد بأسلوب معمارى خاص . وتستغرق واجهات القاعة خمس فسحات ، تتخللها دعامات طوبية ، علما بأن الفسحات الوسطى الثلاث منها تشكل مدخل القاعة . وعلى الجدران الامامية لفسحتيها الجانبيتين نوافذ خشبية ذات شعريات منقوشة . ويزدان سقف القاعة بمربعات من الرسوم الملونة . وعلى جنبات دعاماتها الامامية نقوش من التسابيح الالهية والمدائح النبوية ، وهى تملأ نفوس مشاهديها هيبة واجلالا . وعلى جانبى قاعة الصلاة الى الامام صفان من حجرات مخصصة للدعوة . وقبالة القاعة قاعة مرور اتخذت صالونا للاستقبال حاليا بسبب ازدياد الزائرين الصينيين والاجانب يوما بعد يوم . وعلى جدرانها صورة

ضخمة للمسجد الحرام .

ان افاريز قاعة الصلاة وجملوناتها وتسنيمات سقفها تتكون على الاغلب من الطوب المنقوش بعناقيد العنب وازهار اللوطس وما شابه ذلك . ولكن اشد ما يجذب الانتباه هو جملونات حجرتي الدعوة الجنوبية والشمالية المبنية من القرميد المربع ، تظهر عليها نقوش نافرة مثلثة ومستديرة من الكتابات العربية ، وهي الفريدة من نوعها لدقة نقشها واستثنائية اسلوبها .

اما برج مشاهدة الهلال القائم في فناء المسجد الخلفي ، فمبنى من خمسة طوابق ، يبلغ ارتفاعه ثلاثة وثلاثين مترا . وتزدان مفاصل طوابقه جميعها بالاطواق الجميلة المبنية من النقوش الطوبية . ويتقلص بدن البرج بعض الشيء من قاعدته الى قمته ، ويتطوق الطابق الثالث بدهليز دائري يبلغ عرضه مترا واحدا . ولكل زوايا البرج القائمة دعامة بارزة من الطوب ، لا تؤدي الى تقوية بدن البرج فحسب ، بل تزيده جمالا . زد على ذلك ان هذا البرج السداسي الشكل مفتوح النوافذ في طابقيه الاول والثالث من ثلاث جهات ، وفي طابقيه الثاني والرابع من ثلاث جهات اخرى . وفتح النوافذ على هذا النحو يزيد من بهجة البرج بطبيعة الحال . وجدير بالذكر ان الطابق الخامس عبارة عن جوسق سداسي الشكل ، مخروطي التاج ، مرفوع الكورنيشات . ولو صعدت الى قمة البرج ، للفت نظرك جميع معالم مدينة هوهيهوت . يا له من برج بديع الهندسة ! وعبر ترميمات اجريت للجامع قبل سنوات غدا اكثر روعة من ذي قبل .

٣ ـ المسجد الجنوبي بمدينة شنيانغ

شنيانغ هي اكبر مدينة في شمال شرقي الصين حاضرة مقاطعة لياونينغ كما انها من اهم القواعد الصناعية الصينية .

يقع المسجد الجنوبى فيها على مقربة من شارع شياوشيلو فى حى شنخه . وقيل انه بنى سنة ١٦٦٠ م على وجه التقريب . وكانت مساحته لا تتجاوز خمسمئة متر مربع فى بادئ الامر . ومع ازدياد عدد المسلمين هناك جرى توسيع بنائه بضع عشرة مرة اعتبارا من سنة ١٧٥٥ م ، حتى تكامل كما هو عليه اليوم . ويغطى هذا المسجد مساحة قدرها ستة آلاف متر مربع ، وتتجاوز المساحة المبنية منها الفا وخمسمئة متر مربع . وقاعة الصلاة فى هذا المسجد مبنية من الطوب بناء رائعا ، ويتمثل ذلك فى احكام تركيبها ، وفى جمال النقوش والزخارف على عوارضها ودعاماتها . وكان من محفوظات المسجد اعداد من الانصاب الحجرية والالواح الخشبية التذكارية . وقد جرى ترميم المسجد مرة اخرى بعد تأسيس الصين الجديدة . وحيث انه مركز دينى هام للمسلمين هناك ، الى جانب ذيوع صيته فى منطقة شمال شرقى الصين كلها ، فقد ادرج فى قائمة اهم الآثار المحمية على مستوى مدينة شنيانغ . اما الآن فقد تجددت ملامحه كل الجدة بعد ترميمه مؤخرا .

٤ ــ مسجد بابا فى محافظة لانغتشونغ

لقد بنى مسجد بابا فى محافظة لانغتشونغ من مقاطعة سيتشوان سنة ١٦٨٩ م . وقد عرفنا من « تاريخ لانغتشونغ » انه كان هناك عالم مسلم مكى يدعى عبد الله ، جاء الى الصين متجشما مشقة السفر الطويل بقصد نشر الاسلام اقتداء بالصحابى سعد وقاص الذى قدم للاسلام خدمات جلى فى الصين . وقد حط رحاله فى تشينغهاى بادئ ذى بدء ، ثم انتقل الى لينشيا بمقاطعة قانسو ثم الى هانتشونغ (بمقاطعة شنشى) . وما لبث ان هاجر مع الجنرال ما تسى يون ــ قائد قوات الجناح الايسر بشمال سيتشوان ــ الى لا نغتشونغ سنة ١٦٨٤ م . وتشير الكتابات المنقوشة على « نصب الاستاذ المحترم » (يقصد به الشيخ

عبد الله) الى ان الجنرال السالف الذكر كان شديد الاعجاب بشمائل الشيخ عبد الله وفضائله ، مما دفعه الى ايوائه فى مقره وجعله استاذا عظيما له . ومن هنا بدا الشيخ بنشر التعاليم الاسلامية وسط الاهالى ، وظل يواصل نشر الدعوة الاسلامية الى ان اختاره الله الى جواره سنة ١٦٨٩ م . ويشير « تاريخ محافظة لانغتشونغ » الى " ان تشي جينغ يي — احد تلامذة الشيخ النجباء — قد بنى زاوية مقببة تخليدا لذكراه ، وابتغاء لرضوان الله من اجله ، حيث بقى عدة سنوات حتى غادرها . وبعدئذ استحدث نظام ارسال شخص من خهتشو (لينشيا اليوم) الى الزاوية كلّ ثلاث سنوات لحمايتها بصورة متناوبة . ويسمى هؤلاء المبعوثون ' حماة الزاوية المقببة ' . وكانوا ' يركزون على تهذيب النفوس معتكفين فى الزاوية ' . " والحقيقة ان هذه الزاوية المقببة مركز دينى اسسه المتصوفون فى مقبرة مرشدهم ، ثم اصبح المسجد معروفا باسم " بابا " فى نهاية الامر . وقد عرفنا من هذه المعلومات البسيطة ان التأثيرات الصوفية كانت قد شملت سيتشوان الصينية بواسطة ذلك العالم المكى منذ زمن يعود الى ثلاثمئة سنة خلت . فيحق لنا القول ان هذه المعلومات قيمة ومفيدة لدراسة تاريخ تطور المذاهب الاسلامية فى الصين .

يواجه مسجد بابا الجنوب ، ويبلغ محيط دائرته خمسمئة متر ، ومساحته ثلاثة عشر الف متر مربع . وتشتمل مبانيه الرئيسية على حاجز زخرفى وقوس وجوسق يدعى " جيوتشاو " (الاشعاع الدائم) . وتظهر على الحاجز الزخرفى الطوبى نقوش نافرة بقياس ١×٢ م ، وتشمل مختلف المناظر فى مدينة لانغتشونغ ، مثل الباغودة البيضاء والقناطر والسفن الشراعية والعلية الناطحة للسحاب والجوسق العجيب الشكل . . الخ . ونظرا الى ان نقوش الحاجز الزخرفى نابضة بالحياة وواضحة الخطوط ، فان لها قيمة فنية عالية . اما جوسق " جيوتشاو " — وهو اهم مبنى فى المسجد — فيتكون من طابقين . وتتجلى

روعته فى افاريزه المرفوعة ، وفى الاناء الزخرفى المتربع على قمته . وينقسم الجوسق الى حجرتين داخلية وخارجية ، علما ان الداخلية هى مرقد المرحوم الشيخ عبد الله ، والخارجية مخصصة لممارسة العبادات وتهذيب النفوس بالنسبة الى المتصوفين .

وقد تبين لنا ان مسجد بابا يختلف عن المساجد العامة فى الصين شكلا ومضمونا على حد سواء . ولكن يجب حمايته على خير وجه باعتباره نموذجا مختلفا عن بقية المساجد . ومنذ سنوات قام المسلمون هناك بترميم هذا المسجد ، مما جعله يعود الى عنفوان شبابه . ان مثل هذا النوع من المراكز الدينية الصوفية ليس بالقليل فى شمال غربى الصين .

الدور الخامس : عهد جمهورية الصين (١٩١٢ ـ ١٩٤٩ م)

لما وضعت ثورة ١٩١١ برئاسة الدكتور صون يات صن حدا للحكم الاقطاعى لأسرة تشينغ طفرت الامة الصينية ـ بما فيها عشر قوميات مسلمة ـ الى الامام لأول مرة فى القرن الحالى . وفى ظل ذلك ظهر عدد كبير من المساجد ، ومن ضمنها مسجد تيانتشياو ببكين ، ومسجد شانغتشيو بمقاطعة خنان ، ومسجد بيشياجيه بمدينة تشنغتشو من مقاطعة خنان ، ومسجد سانينغ بمنطقة نينغشيا الذاتية الحكم لقومية هوى ، ومسجد شينغختشوانغ بمحافظة بينغليانغ من مقاطعة قانسو ، ومسجد دونغقوان الغربى فى محافظة تساوشيان من مقاطعة شاندونغ ، ومسجد باودينغ النسائى من مقاطعة خبى . . الخ . ولعدم توفر المعلومات الخاصة بهذه المساجد ، فلا يسعنى الا التعريف بأكبر المساجد المشيدة فى هذه الفترة .

جامع دونغقوان فى مدينة شينينغ

شينينغ هى عاصمة مقاطعة تشينغهاى ، حيث يقطن المسلمون بكثافة .
وقد بنى مسجد صغير فى المدينة فى مطلع عهد اسرة مينغ (١٣٦٨ – ١٦٤٤ م) على يد الجنرال المسلم مو ينغ . لكنه دمر على ايدى سلطة اسرة تشينغ (١٦٤٤ – ١٩١١ م) ، فقام المسلمون هناك باعادة بنائه ، ثم هدم ثانية . . وهلم جرا . وفى سنة ١٨٩٥ م تمادت سلطة اسرة تشينغ فى غيها الى حد استئصال شأفة المسجد . ولم تكتف بذلك بل ارسلت عددا من العملاء الى موقع المسجد لمراقبة تحركات المسلمين وتهديدهم بالمعاقبة الشديدة اذا ما تجاسروا على بناء المسجد مرة اخرى .

وهيأ انتصار ثورة ١٩١١ للمسلمين هناك الظروف المؤاتية لاعادة بناء المسجد . فبعد جهود استغرقت سنتين تم لهم بناء مسجد جديد ، ولكنهم فكوه سنة ١٩١٦ م بسبب انحراف قاعة صلاته عن القبلة . ولما تم تحديد القبلة ، اعيد بناء المسجد على نطاق واسع . وفى الفترة ما بين ١٩٤٦و١٩٤٧ اضيف الى المسجد جناحان جنوبى وشمالى مكونان من طابقين . كما اضيف له بوابتان ومئذنتان واكثر من ثمانين غرفة اضافية حتى اصبح جامعا على الصورة التى نراها اليوم .

ويغطى جامع دونغقوان مساحة تربو على ٦٠٠ر١٣ متر مربع : وتبلغ مساحتها المبنية اكثر من ٦٠٠ر٤ متر مربع . لذلك لا يعتبر اكبر جامع فى مقاطعة تشينغهاى فحسب ، بل هو غالبا ما يقرن اسمه مع جامع عيد كاه بمدينة كاشغر من شينجيانغ وجامع هواجيويه بمدينة شيآن . انه جدير بأن يعد من اكبر الجوامع فى الصين . ويبدو هذا الجامع مهيبا وجميلا للغاية لفخامة مبانيه وجمعه بين فن العمارة الصينى التقليدى واسلوب العمارة الاسلامى . اما مدخل الجامع الاول فهو مبنى يبلغ ارتفاعه عشرة امتار وعرضه خمسة

عشر مترا وعلى عقده العلوى الكلمات التالية المذهبة : " جامع دونغقوان فى شينينغ " . ولو دلفت من المدخل الاول الى الداخل مسافة ثلاثين مترا لألفيت نفسك امام المدخل الثانى المسطح المكون من خمسة عقود اسلامية الطراز . ويبلغ ارتفاع هذا المدخل الجميل التخطيط عشرة امتار ، ويبلغ عرضه واحدا وعشرين مترا ، ويشكل مع مئذنتين ناطحتين للسحاب على جانبيه منظرا فريدا من نوعه .

ولدى دخولك من المدخل الثانى تجد نفسك امام صحن تبلغ مساحته ٥٠٠ر٤ متر مربع ، وعلى جانبيه جناحان جنوبى وشمالى مكونان من طابقين اما الجناح الشمالى ، فمخصص للاستقبال وخزن الكتب الاسلامية والاجتماع العام ، بينما الجناح الجنوبى مخصص لسكن طلاب العلم والبحوث التعليمية . وتنتصب فى غربى صحن الجامع قاعة صلاة تغطى مساحة قدرها ١٣٦ر١ مترا مربعا . ونظرا الى انها مبنى مماثل لاحدى القاعات الامبراطورية المشيدة فى عهد اسرة مينغ مع وقوعها على قاعدة مرتفعة ، فانها تبدو مهيبة ورائعة الى حد لا يوصف . وقد زينت واجهات القاعة المسقوفة بنقوش دقيقة من الازهار المتنوعة ، وهى جميلة جمال مثيلاتها الطبيعية . ويكسو سطح القاعة قرميد مطلى بالزجاج الملون . وتظهر فى وسط تسنيمة سقفها ثلاثة اوان زخرفية مذهبة تبهر الابصار لشدة لمعانها وتألقها .

وحيث ان هذا الجامع معروف بروعة مبانيه وضخامة حجمه ، فما من احد اتى الى شينينغ الا استمتع بزيارته . وكان الكثير من كبار المسؤولين الحكوميين قد تركوا آثار اقدامهم فى الجامع . ومن الجدير بالذكر انه عندما قام المارشال الراحل تشن يى بزيارة الجامع سنة ١٩٥٦ تبرع له بمبلغ قدره الف يوان . وقد اصبح هذا الامر حكاية مشوقة تتناقلها ألسنة المسلمين هناك حتى يومنا هذا . وقد تم ترميم الجامع على نطاق واسع سنة ١٩٨١ ،

ويشهد هذا الجامع عادة آلاف المصلين فى ايام الجمعة والاعياد . وهذا المشهد لم يكن له مثيل فى تاريخ المسجد .

الدور السادس : بعد تأسيس جمهورية الصين الشعبية سنة ١٩٤٩

ان تأسيس جمهورية الصين الشعبية سنة ١٩٤٩ يرمز الى ان ابناء مختلف القوميات الصينية قد دخلوا مرحلة تاريخية من التغيرات العظمى ، فقد اصبح ابناء القوميات المسلمة سادة انفسهم بكل معنى الكلمة ، شأنهم شأن بقية ابناء وطنهم . اذ لم ينهضوا اقتصاديا وثقافيا فحسب ، بل حظيت عقيدتهم الدينية بالحماية قانونيا . وفى ظل ذلك خصصت الحكومة الشعبية الاموال لترميم بعض المساجد القديمة التى تداعى بنيانها بسبب حرمانها من الاصلاح اعواما طوالا ، وان كان الاقتصاد الوطنى آنذاك يمر بمرحلة فى غاية الصعوبة . والهدف من ذلك تسهيل ممارسة المسلمين عباداتهم . وجدير بالذكر ان الكثير من المساجد التى ذكرت فى هذا الكتاب والتى لم تذكر ايضا قد استعادت ملامحها الاصلية اعتمادا على معونات الحكومة الشعبية .

وخلال " الثورة الثقافية " (١٩٦٦ — ١٩٧٦) كانت سياسة حرية العقيدة الدينية التى وضعت بعد تأسيس الصين الجديدة قد ديست بالاقدام ، فهدمت اعداد كبيرة من المساجد ، او استخدمت لأغراض اخرى . وكانت الجموع الغفيرة من المسلمين متألمة غاية الالم لما تعرضت له المساجد من تخريب وتعطيل على ايدى المجرمين . وبعد ازالة " عصابة الاربعة " اعيد افتتاح اكثر من ثلاثة وعشرين الف مسجد فى كافة انحاء البلاد تدريجيا ، بفضل تطبيق سياسة حرية العقيدة الدينية من جديد . ومعظم المساجد المذكورة

فى هذا الكتاب هى التى اعيد افتتاحها بعد الترميم . ولكن هناك عدد من المساجد المعاد بناؤها اعتمادا على تبرعات المسلمين بصورة رئيسية . ولنتوقف عند اثنين من المساجد التى جدد بناؤها فى هذه الفترة .

١ ـ جامع نانقوان بمدينة ينتشوان

ان ينتشوان حاضرة منطقة نينغشيا الذاتية الحكم لقومية هوى . اما الناحية خارج بوابة المدينة الجنوبية فهى مأهولة بالمسلمين . وقد كان هناك جامع ضخم ، ولكنه دمر بين عشية وضحاها فى هوس " الثورة الثقافية " . وقد تألم المسلمون هناك الما شديدا لهذا الاعتداء على مقدساتهم الدينية . ولما طويت صفحة هذه المحنة الجسيمة ادلى فريق من المسلمين المتحمسين للمصالح العامة باقتراح حول اعادة بناء الجامع ، فسرعان ما تجاوب معهم الآخرون . وكان من بينهم من تبرعوا بكل ما ادخروه من الاموال لبناء الجامع ، ومن نقلوا ما اعدوه من مواد البناء لتشييد مساكنهم الى موقع بناء الجامع ، ومن بادروا فى اوقات فراغهم الى موقع العمل حيث تطوعوا بالعمل ، باذلين اقصى جهودهم الى حد تغاضيهم عن الطعام والنوم . يومها ساد موقع العمل جو متوقد النشاط والحيوية ، تسابق فيه الجميع الى تقديم الخدمات لاعادة بناء الجامع . وبفضل تعاونهم يدا واحدة وقلبا واحدا وارادة واحدة وجهدا مشتركا تم بناء الجامع الجديد فى اغسطس ١٩٨١ فى غضون نصف سنة ليس اكثر . وهذه السرعة القصوى فى بنائه كانت مثار اعجاب شديد ، كما ان جودة بنائه وجمال شكله وقلة تكاليفه قد حظيت بالاطراء والثناء . ولمبنى الجامع الاسلامى الطراز هذا قبة كبيرة قاتمة الخضرة ، تعلوها شارة " الهلال " . وتنتصب على كل ركن من اركان المبنى الاربعة قبة صغيرة بنفس اللون . وقد قال الاخ باو تشيوان قوى ـ احد متولى شأن الجامع الجديد ـ ان احد المصممين المسلمين

كان قد اضطلع بمهمة تصميم الجامع بمبادرة ذاتية منه . وكان ما يصبو اليه هو ان يجعل الجامع فسيحا وجميلا وصالحا للعبادات ومميزا بالسمات الاسلامية . وحين سئل هذا المتولى عن مغزى شكل الجامع قال بكل ابتهاج : " لا يخفى على احد ان الهلال ولون الخضرة رمز اسلامنا . اما القباب الخمس على مبنى الجامع فلها مغزاها الخاص . ان اكبرها ترمز الى نبينا محمد عليه الصلاة والسلام ، وان القباب الاربع الصغيرة ترمز الى صحابته الاربعة : ابو بكر وعمر وعثمان وعلى رضى الله عنهم . . " واردف قائلا : " اصبح هذا الجامع مبعث سرور عظيم الى نفوسنا نحن المسلمين منذ ان تم بناؤه ، كما ان اصدقاءنا من غير المسلمين يتقاطرون عليه دون انقطاع اعجابا به . وما من احد اتى لزيارة الجامع الا واثنى عليه الثناء العظيم . وجدير بالذكر ان وان لى نائب رئيس مجلس الدولة قد قدر جامعنا هذا تقديرا عاليا حين مر به خلال جولته التفقدية . " وعرفنا فى معرض حديث المتولى ان رسام التصاميم لهذا الجامع قد منح جائزة على مستوى منطقة نينغشيا تقديرا لنجاحه فى التصميم . وهذا يدل على القيمة الكبيرة التى يتمتع بها هذا الجامع فى ميدان الهندسة المعمارية الى جانب اهميته الدينية . فلا غرو ان تظهر صورته على شاشة التلفيزيون عبر المحطة المركزية فى فترة من الفترات باعتبارها علامة مميزة لمدينة ينتشوان .

ان مبنى الجامع اسمنتى التركيب ، ويشغل مساحة قدرها ٢٫٠٧٤ مترا مربعا . فالطابق العلوى هو قاعة الصلاة التى تحيط بها الدهاليز الفسيحة من كل الجهات . وبالاضافة الى سعة مساحتها وحسن اضاءتها وتغليف دعاماتها بالرخام ، فان واجهاتها مزدانة بالكتابات العربية النافرة المشتملة على التسابيح الالهية والمدائح النبوية ، وان ارضيتها اللامعة مفروشة بالسجاجيد المهداة من البلدان الاسلامية ، وهذا ما جعلها فى غاية الاناقة والمهابة .

اما الطابق الارضى فيشتمل على حجرة دعوة وقاعة استقبال ودورتى مياه للوضوء مجهزتين بالمعدات العصرية ، خصصت احداها للرجال ، والاخرى للنساء . وكلما حان وقت الصلاة ترددت اصداء صوت الاذان الرخيم المنبعث من الجامع فى فضاء مدينة ينتشوان العريقة . هذا وقد قال احد المسلمين الباكستانيين : " يا للفرق الكبير بين وضع هذا الجامع المزدحم بالمصلين اليوم والوضع الذى كنت اراه خلال ' الثورة الثقافية ' " .

٢ — مسجد جينتشو

تقع مدينة جينتشو فى غربى مقاطعة لياونينغ . وهى عقدة المواصلات بين شمال الصين الشرقى ومناطقها الداخلية . كان هناك مسجد بنى فى اوائل عهد جياجينغ (١٥٢٢ — ١٥٦٦ م) . ولم تتكامل مرافقه الا بعد توسيع بنائه مرارا . ومما يؤسف له ان هذا المسجد الذى يرجع تاريخه الى خمسمئة سنة قد تهشم خلال " الثورة الثقافية " . وبعد ان اكدت الحكومة الشعبية استئناف تطبيق سياسة حرية العقيدة الدينية من جديد ، اقبل المسلمون هناك على اعادة بناء المسجد على انقاضه سنة ١٩٨٢ . وعبر تحديد خطة التصاميم وتنفيذ المشروع بكل عناية ، ظهر الى حيز الوجود مسجد جديد كل الجدة . وقد سر المسلمون هناك ايما سرور باعادة بناء المسجد الذى فقدوه ردحا من الزمن . يومها راحوا يتناقلون هذا الخبر السار فيما بينهم وهم يحمدون الله حمدا كثيرا ، ويشكرونه على نعمائه .

تبلغ مساحة هذا المسجد الجديد ٩٥٧ مترا مربعا ، وله فناء واسع نظيف . ويقوم فى جنوب الفناء مكتب ادارى ودورة مياه للوضوء . وتتصدره قاعة صلاة ذات جدران فاتحة الصفرة وتصوينة سطحية مكسوة بالزلط الابيض . وتظهر على اركان القاعة الاربعة قبب قاتمة الخضرة ، تتوسطها قبة كبيرة

بنفس اللون . ويعتقد بأن هذه القباب الخمس ترمز الى ما ترمز اليه نظيراتها فوق قاعة الصلاة فى جامع ينتشوان السابق ذكره . وبالاضافة الى زخرفة كل من القباب بكرة من الصلب غير القابل للصدأ ، فان اكبرها تعلوها شارة الهلال ، مما يوحى الى الناظرين لأول وهلة بأن قاعة الصلاة هذه انما هى مبنى اسلامى الطراز .

ان قاعة الصلاة هذه واسعة حسنة الاضاءة . وعلى كلا جداريها الجانبيين اللطيفى اللون مجموعتان من المصابيح الكهربائية اللبنية اللون ، وعلى محرابها نقشت تسابيح مذهبة . اما سقف القاعة فيتكون من الواح بلاسيكية كلسيومية لبنية اللون ومميزة برسوم عباد الشمس ، ويتدلى من هذا السقف ثمانى ثريات واربع مجموعات من مصابيح الفلورسات ، مما يشكل مع ارضية القاعة القاتمة الحمرة مشهدا متباينا فريدا من نوعه ، وهى تبهج القلوب الى حد كبير .

ولقد حظى هذا المسجد بمعوْنة من غير المسلمين هناك فى مجرى اعادة بنائه . من ذلك ان الكرات الفولاذية السالفة الذكر قد صنعها مصنع البتروكيماويات رقم ٦ فى المدينة ، وقدمها للمسجد دون مقابل . ومع ان هذا الدعم يبدو بسيطا فى حجمه ، الا انه يعكس المشاعر الودية التى يكنها ابناء الشعب من غير المسلمين للمسلمين الصينيين .

* * *

لقد اعيد بناء المساجد فى كافة انحاء البلاد بعد انقضاء " الثورة الثقافية " ، ولكن المجال لا يتسع لذكرها واحدا تلو الآخر . ومما يستحق الذكر ان الكثير من المناطق التى كانت خالية من المساجد قد اصبح فيها مساجد جديدة . فمدينة قرمو فى غربى تشينغهاى ، ومنجم ويدونغ للفحم الحجرى فى مدينة شيشسويشان بنينغشيا ، وحقول نفط كلاماى فى شينجيانغ ، وحقول نفط داتشينغ فى هيلونغجيانغ وغيرها من المناطق كانت عبارة عن اراض جرداء .

ولكن جماعات من المسلمين هاجروا اليها مع غيرهم فى ظل تطور البناء الاقتصادى الوطنى . فلم تكتف الحكومة الشعبية بالاهتمام بحياتهم ومعيشتهم اشد العناية من مختلف الجوانب ، بل قدمت لهم التسهيلات فى بناء المساجد ، مما مكنهم من ممارسة العبادات فى ظل الظروف الجديدة كالمعتاد . ولقد قال بعض المسلمين بتأثر : " فى هوس ' الثورة الثقافية ' دمر بعض المساجد ، واغلق بعضها الآخر ، فأضطررنا نحن المسلمين الى ممارسة العبادات فى الخفاء . اما الآن فقد بنيت المساجد فى مثل هذه المراكز السكنية الجديدة . ومثل هذه التغيرات لم تكن لتخطر على بال ! "

ومن اجل اظهار الحضارة الاسلامية ، ودراسة الشريعة الاسلامية ، واعداد الاكفاء فى علوم الدين ، وممارسة التبادل العلمى مع البلدان الاسلامية على نحو افضل ، فقد اجازت الحكومة الشعبية لمنطقة نينغشيا الذاتية الحكم لقومية هوى بناء مركز ثقافى اسلامى فى غربى مدينة ينتشوان ، وهو المركز الاول من نوعه . وفى سنة ١٩٨٥ اقيمت حفلة وضع حجر الاساس لهذه المؤسسة الثقافية الاسلامية الجامعة الضخمة فى غربى مدينة ينتشوان . واقبل المصممون من المسلمين على تخطيط المشروع الذى ستبلغ مساحته الاجمالية ١٥ هكتارا ، وتكون مساحة البناء فيه ٦٠ الف متر مربع . وتشتمل مبانيه على مسجد مقبب يستوعب ٢٫٥٠٠ مصل ، وثلاث مآذن ومعهد اسلامى ودار دراسات اسلامية ومكتبة ، بالاضافة الى مستشفى تتوفر فيه ٣٠٠ سرير . وفى ١٦ اكتوبر ١٩٨٥ لبست مدينة ينتشوان ازهى حللها ، فقد زينت شوارعها بالمصابيح والبيارق الملونة والاقواس الجميلة . وغرقت الآلاف المؤلفة من المسلمين فى نشوة السرور والبهجة ، حيث شاركوا ضيوفهم من مختلف البلدان فى حفلة وضع حجر الاساس لهذا المركز الثقافى الاسلامى . وبعد ان اسهب حنبلى رئيس منطقة نينغشيا الذاتية الحكم لقومية هوى فى الحديث

عن اهمية بناء المركز ، القى الشيخ محمد شيما ــ مبعوث رابطة العالم الاسلامى ــ كلمة فاضت بالحماسة .

الفصل الثانى

المصادر المالية لبناء المساجد فى الصين

على الرغم من ان نسبة عدد المسلمين فى الصين تمثل ٤ر١ بالمائة من مجموع سكان البلاد ، الا ان مساجدهم تتوزع فى كافة انحائها . وذلك يعكس ميزة تبعثر سكناهم من حيث الكل وكثافة سكناهم من حيث الجزء . ومعنى ذلك انهم ينتشرون فى طول الصين وعرضها من جهة ، ويتمركزون فى اماكن معينة من جهة اخرى . وفى المناطق التى يكثر فيها المسلمون نسبيا تجدهم يسكنون فى قرى مستقلة من الريف ، وفى شوارع خاصة بهم من المدن . ويشكل كل تجمع اسلامى جماعة او عدة جماعات دينية . ولكل جماعة دينية مسجد ، وهو مركز دينى خاص بها . اما حجم مسجد كل جماعة دينية فيتوقف على عدد المسلمين المنتمين اليها ، وعلى قوتهم الاقتصادية . ونظرا الى ان هذه الجماعات الدينية مستقل بعضها عن بعض ، دون ان يكون لها علاقة انتمائية ببعضها بعضا ، فان اموال كل مسجد تستخدم فى الانشاءات الاساسية والنفقات اليومية يتم جمعها من قبل المسلمين المنتمين اليه . فمثلا ، لم يكن فى بلدة تشوجى (مدينة شانغتشيو اليوم) بمقاطعة خنان مسلمون فى الاصل . ومنذ مدت اليها سكة حديدية فى الايام الاولى بعد تأسيس جمهورية

الصين (١٩١٢ ــ ١٩٤٩ م) هاجر اليها ما يقارب عشر اسر مسلمة ، حيث اعتمدوا فى كسب رزقهم على بيع المأكولات الخفيفة . يومها واجهوا اول ما واجهوا الصعوبات فى ممارسة العبادات لعدم توفر مسجد . ومع انهم كانوا يمرون فى مرحلة اثبات اقدامهم بصعوبة ، الا انهم تبرعوا بالاموال لاستئجار كوخين واتخاذهما مكانا للصلاة ، وتسوير قطعة من الارض واعتبارها دورة مياه للوضوء . وعندها شهدت هذه البلدة مسجدا بسيطا كل البساطة . اما مدينة شيويتشو بمقاطعة جيانغسو ، فلم يكن فيها سكان مسلمون ايضا . وفى عهد جياتشينغ (١٧٩٦ ــ ١٨٢٠ م) هاجر اليها مسلم يدعى " هو " من مدينة جينينغ بمقاطعة شاندونغ ، حيث اسس محلا للجلود ، كما بنى مسجدا صغيرا قرب محله ، واستقدم اماما لرعاية الشؤون الدينية . ومنذ ان هاجرت اسر اخرى من المسلمين الى المدينة ، قدم السيد " هو " مسجده ليكون مركزا دينيا للجميع . وجدير بالذكر ان هذين المسجدين المتواضعين المذكورين قد اعيد بناؤهما مرارا ، الى ان تكاملت مرافقهما فى نهاية المطاف . وان المساجد فى الصين غالبا ما كانت تجتاز مسيرة التطور من العدم الى الوجود ومن الصغر الى الكبر ، شأنها فى ذلك شأن المسجدين المذكورين .

ان للمسلمين من مختلف البلدان تقاليد فى التبرع بالاموال لبناء المساجد او لترميمها لأن ذلك من الاعمال الحسنة والصدقات الجارية ، اما فى البلدان التى تتواجد فيها هيئات الاوقاف ، فليس هناك غالبا صعوبة فى الحصول على الاموال لهذا الغرض . ولكن كيف يتم جمع الاموال لهذا الغرض فى الصين الخالية من هيئات الاوقاف ؟ انها مسألة طالما استأثرت باهتمام الناس ، فمن الضرورى تخصيص بعض الصفحات للحديث عن ذلك .

ان مصادر الاموال المستعملة فى بناء المساجد او اعادة بنائها او ترميمها متنوعة ، ولكن اهمها يتركز فيما يلى :

١ ـ التبرعات الشخصية

ان المساجد المبنية اعتمادا على التبرعات الشخصية تمثل نسبة معينة من المساجد فى الصين . وبالاضافة الى بعض المساجد التى سبق ذكرها ، مثل مسجد تشينغجينغ بمدينة تشيوانتشو ، ومسجد فنغهوانغ بمدينة هانغتشو ، ومسجد دونغسى ببكين . . الخ ، فان هناك اعدادا كبيرة من المساجد قد تم بناؤها على حساب الافراد فى تاريخ بناء اا ساجد الصينية . ومن ضمنها مسجد فى زقاق دنغلونغ بمدينة نانجينغ ، بنى فى عهد اسرة مينغ على حساب السيد ما ون تشاو (شخصيته غير معروفة) ، ومسجد فى زقاق تشينغبينغ بمدينة تشنغتشو بنى فى السنوات الاولى من فترة جمهورية الصين على حساب التاجر الكبير السيد ما ليانغ جيون من مواليد هوابينغ بمقاطعة قانسو (محافظة جينغيوان بمنطقة نينغشيا الذاتية الحكم لقومية هوى اليوم) ، ومسجد للنساء فى زقاق هويفو بمدينة نانجينغ بنى فى سنة ١٩٢٧ م على حساب السيدة تسوه (كنة الجنرال تسوه باو قوى) ، ومسجد جنوب قرية بايدانغ بمحافظة سويشيان من مقاطعة خنان بنى فى الثلاثينات من القرن الجارى على حساب المالك العقارى المحلى ما بى يانغ . . الخ .

٢ ـ المعونات المشتركة بين الدولة وكبار المسؤولين المسلمين

وهناك مساجد قد تم بناؤها او توسيع بنائها على حساب الدولة وكبار المسؤولين المسلمين فى الهيئات العسكرية والحكومية . وكان من بينها مسجا دينغتشو ومسجد بوتشن بمقاطعة خبى ، والمسجد الذى بناه الامبراطور تشو دى لأسرة مينغ فى نانجينغ من اجل تشجيع الرحالة المسلم تشنغ خه على الابحار فى المحيط الهندى ، ومسجد بلدة ديفانغ فى محافظة بينغيى بمقاطعة شاندونغ ـ ذلك الذى بنى على حساب الجنرال تسوه باو قوى ، ومسجد قرية تشيانجينغ

فى ضاحية مدينة قويلين من منطقة قوانغشى الذاتية الحكم لقومية تشوانغ — ذلك الذى شيد على حساب الجنرال باى تشونغ شى احد قادة القوات المسلحة الموالين لحزب الكومينتانغ . . الخ .

٣ — المعونة المباشرة من الحكومة

وهناك مساجد قد تم بناؤها او توسيع بنائها اعتمادا على معونة الحكومة . وكان من ضمنها مسجد جينغجيويه بمدينة نانجينغ ، ومسجد نيوجيه ببكين ، وجامع هواجيويه بمدينة شيآن ، والمساجد الامبراطورية الاخرى التى حظيت بمعونة الحكومات على اختلاف العصور خلال توسيع بنائها على الاقل . وبعد ولادة الصين الجديدة خصصت الحكومة الشعبية الاموال مرارا لترميم الكثير من المساجد الشهيرة فى كافة انحاء البلاد بقصد تنفيذ سياسة حرية العقيدة الدينية من جهة وحماية الآثار الاسلامية من جهة اخرى ، الامر الذى جعل كثيرا من المساجد مثل مسجد هوايشنغ بقوانغتشو ومسجد دونغسى ببكين وجامع تونغشين بنينغشيا والجامع الجنوبى فى مدينة جينان . . الخ ، تستعيد ملامحها الاصلية . اما المساجد التى جرى بناؤها وتوسيع بنائها وترميمها بدعم من الحكومة الشعبية بعد ان طويت صفحة " الثورة الثقافية " ، فهى اكثر من ذى قبل .

ومع ان هذه الاصناف الثلاثة تمثل نسبة معينة من مساجد الصين ، الا ان اغلبيتها قد تم بناؤها او توسيع بنائها او ترميمها اعتمادا على تبرعات عامة المسلمين . وبسبب تفاوت مستويات حياة المسلمين الصينيين من مكان لآخر ، وتباين احجام المساجد التى هم بحاجة اليها ، فقد اختلف ايضا حجم الصعوبات التى كانوا يواجهونها فى جمع الاموال لهذا الغرض . وعلى الرغم من ان باستطاعة المسلمين فى بعض المناطق جمع الاموال الكافية لبناء المساجد المطلوبة فى فترة قصيرة ، الا ان معظم المساجد كان لا بد لها من اجتياز مرحلة التطور

من الصغر الى الكبر . ولذلك فان جامع عيد كاه وجامع هواجيويه وجامع شينينغ وجوامع اخرى قد تطورت على هذا النحو ، الى ان تكاملت على الشكل الذى نراه اليوم . وهذا حال الكثير من المساجد الصغيرة . وهناك مساجد لم تتكامل مرافقها الا بعد جهود مضنية ، استغرقت عشرات السنين او تجاوزت احيانا مائة سنة . فلقد قام مثلا مسلمو بلدة تشوجى باستئجار اكواخ قشية سنة ١٩١٧ ، واتخذوها مكانا لصلاتهم . ولم يلجأوا الى شراء قطعة من الارض لبناء مسجدهم ومبانيه الاضافية الا بعد ثماني سنوات من ذلك . ولكن المسجد الذى بنوه اصبح يضيق بهم فى اواخر فترة حرب المقاومة ضد اليابان (١٩٣٧ — ١٩٤٥ م) ، مما دفعهم الى جمع الاموال من جديد وتوسيع بناء مسجدهم ، حتى اصبح على ما نراه اليوم . اما مسجد شيويتشو بمقاطعة جيانغسو ، فقد بدأ تشييده فى الفترة ما بين القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، وجرى توسيع بنائه مرارا فيما بعد . ومع ذلك فقد ظل متواضعا للغاية . وبسبب عدم توفر الاموال الكافية لدى المسلمين هناك لاعادة توسيع المسجد ، فقد تركوه كما هو مدة طويلة . وعندما كان ممثل اوبرا بكين المرموق السيد ما ليان ليانغ يقوم بجولة تمثيلية فى شيويتشو صرح له امام المسجد بما واجهه المسلمون هناك من صعوبات اقتصادية فى توسيع بناء المسجد ، فتبرع لهم هذا الممثل المسلم المولع بدعم القضايا الخيرية بأكثر من ٣٠٫٠٠٠ يوان ، مما مكنهم من توسيع بناء مسجدهم نسبيا .

وعادة ما تؤسس هيئات خاصة بجمع الاموال من اجل توسيع بناء المساجد المؤقتة التى بنيت حسب مقتضى الحال ، او للنهوض ببناء المساجد الجديدة على حد سواء . ويتكون هذا النوع من الهيئات من المسلمين الاجلاء والراضين ببذل الذات ، ومن عادتهم ان يقوموا بالدعوة الى التبرعات وايضاح اهمية وضرورة بناء المساجد وسط عامة المسلمين . وهم اما يتجولون من بيت لآخر ،

واما يغتنمون فرص تجمعهم فى الاعياد الدينية او فى ايام الجمعة . وفى هذه الحالة تجد المستمعين يتبرعون غالبا بالاموال بقدر استطاعتهم بدافع من حماستهم للقضية الاسلامية . وقد يتم جمع الاموال المطلوبة فى فترة سنة او سنتين ، وقد يستمر الامر عدة سنوات . فاذا كان من الصعب الحصول على الاموال الكافية من اماكن تواجدهم ، حق لهم ان يستعينوا باخوتهم من المسلمين فى اماكن اخرى ، سالكين جميع السبل الممكنة . واعم الطرق الى ذلك هو ايفاد مبعوثين الى هنا وهناك لجمع الاموال فى المساجد . ويمكن للمسلمين الذين يهمهم الامر ارسال الاعلانات عن جمع الاموال الى اقربائهم واصدقائهم المقيمين فى اماكن اخرى للحصول على مساعدتهم . ومن عهد قريب لجأت بعض الاماكن الى جمع التبرعات عن طريق نشر الاعلانات فى المجلات والصحف . من ذلك ان مجلة « صوت المسلمين » قد نشرت فى عددها الصادر فى فبراير ١٩٣٣ اعلانا يدعو الى التبرع لترميم مسجد هوايشنغ بمدينة قوانغتشو . ومن عادة المسلمين الصينيين ان يبذلوا كل غال ورخيص فى سبيل بناء المساجد اذا دعوا الى ذلك . فيمكن القول بأن الكثير من المساجد التى تم بناؤها او توسيع بنائها قد جاءت نتاجا للعون المتبادل بين المسلمين من مختلف المناطق . ويعتبر ذلك انعكاسا تاما للتضامن والتواد فيما بينهم .

وبفضل التعايش المشترك بين المسلمين وغير المسلمين فى الصين جيلا بعد جيل اشتدت اواصر المودة والمحبة فيما بينهم . فهناك عدد كبير من غير المسلمين مدوا يد المساعدة الى المسلمين فى بناء المساجد . من ذلك ان وو رو — احد الارستقراطيين غير المسلمين فى التاريخ قد قدم منزله لكى يكون مسجدا للمسلمين . اما فى غضون السنوات القليلة الماضية فقد حظى المسلمون بمعونة الكثير من غير المسلمين فى مجرى اعادة بناء مساجدهم .

فمثلا : عندما كان مسلمو شارع شيابوه ببكين يستعدون لاعادة بناء بوابة مسجدهم توجه مبعوثون منهم الى الفرقة المعمارية الخاصة بالمباني الكلاسيكية الطراز لطلب المساعدة منها . ولما علم اثنان من مسؤولى الفرقة (وهما من غير المسلمين) بالسبب الذى جاء القادمون من اجله ، وافقا بكل سرور على تنفيذ المشروع دون مقابل ، ولم يكتفيا بذلك ، بل تبرعا بسبعين يوانا ايضا . هذا وقد وضعت خطة لبناء البوابة المطلوبة بعد ان عمل مصمم الفرقة المعمارية آناء الليل واطراف النهار . ومن اجل ضمان جودة التنفيذ اختارت الفرقة عمالا ماهرين عندها للاشتراك فى التنفيذ . وفى ٨ مايو ١٩٨٥ اخذ عمال الفرقة المعمارية فى بناء البوابة فى اوقات فراغهم ، عملوا اكثر من خمسين يوما متواصلة . ولم يكن هؤلاء العمال يسعون وراء الجاه والمال ، حتى انهم رفضوا ان تقدم لهم ولو وجبة واحدة ، فضلا عن تقاضى الاجور . وعلى هذا النحو بنيت بوابة المسجد دون انفاق مليم واحد مقابل خدمات العمال ، الامر الذى وفر له اكثر من اثنى عشر الف يوان . وتبدو هذه البوابة الاسلامية الطراز بديعة وجميلة ومهيبة فى آن واحد . وهى تختلف عن المبانى المجاورة بجدرانها المكسوة على نحو جميل ومصراعيها القرمزيى اللون وجناحيها المضاءين وشارة الهلال المتألقة . وهذا ما جعل الكثير من الناس يأتون لالتقاط الصور التذكارية امامها .

اما المساجد التى لم يكمل بناؤها الا بعد عشرات السنين او بعد مائة سنة ، فهى اما انها تستوجب توسيع بنائها ، واما اعادة بنائها لعدم مواكبتها مقتضى الحال بعد ازدياد عدد المسلمين ، واما انها غير مكتملة المرافق منذ مدة طويلة بسبب عجزها المالى . ومع تحسن احوال المسلمين الصينيين الاقتصادية يوما بعد يوم ازداد عدد المساجد التى اكمل بناؤها دفعة واحدة . فمثلا بمجرد ان دمر الحريق مسجد بينتشو فى مدينة اورومتشى فى اواخر

السبعينات تبرع المسلمون هناك بالاموال الكافية لاعادة بنائه فى فترة قصيرة . وبعد شهرين تقريبا من العمل فى تنفيذ المشروع اناء الليل واطراف النهار ، برز الى حيز الوجود مسجد جديد كل الجدة . اما مسجد قرية ماهاى بمحافظة ختسه بمقاطعة شاندونغ فقد كان بحاجة الى اعادة بنائه لحرمانه من الترميم ردحا طويلا من الزمن . وما ان وجهت الدعوة الى ذلك حتى شن المسلمون هناك حملة حامية للتبرعات . وكان هناك عدد كبير ممن تبرعوا بألف يوان او اكثر ، مما قدم دليلا على مدى حماستهم لبناء المسجد ، كما اشار الى تحسن جذرى فى احوال المسلمين الصينيين الاقتصادية .

الفصل الثالث

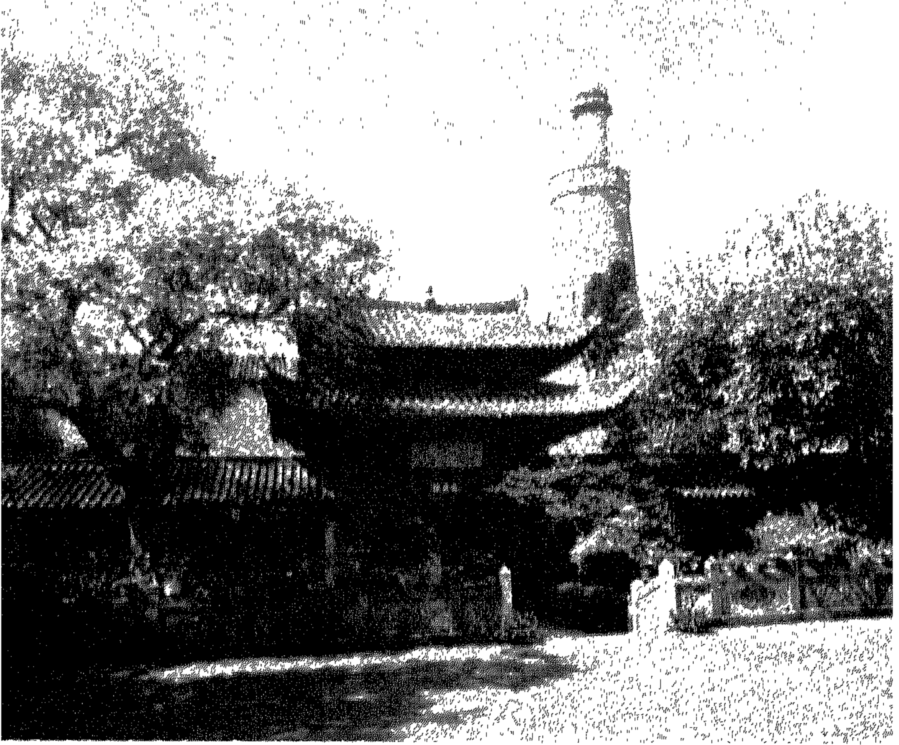
مصادر نفقات المساجد فى الصين

على الرغم من ان انشاءات المساجد الاساسية تتطلب اموالا ضخمة ، الا انها ليست نفقات دائمة . ولكن بعد بناء المساجد لا بد من توفير نفقاتها اليومية ، ولو لا ذلك لتعذر على المساجد ممارسة نشاطاتها .

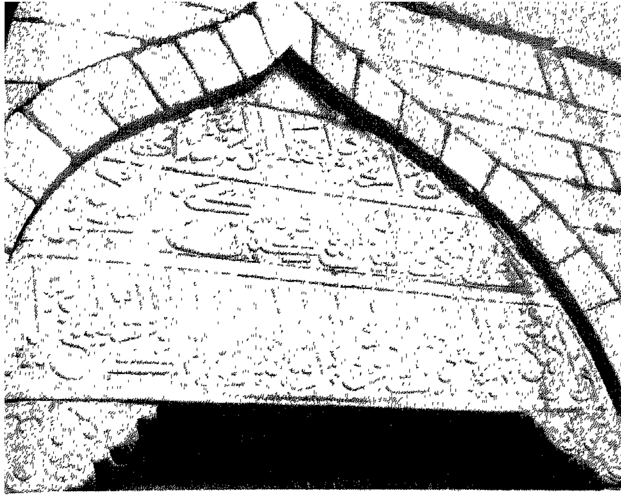
تستخدم نفقات المساجد فى تغطية رواتب الامام ورجال الدين الآخرين ومعاشات طلاب المدارس المسجدية ، وفى توفير الوقود والاضاءة وتكريم الضيوف والتصدق على المساكين وشراء اوانى الوضوء والسجاجيد . وتختلف كميات هذه النفقات باختلاف احجام المساجد . اما الجوامع فعادة ما يحتاج كل منها الى الفى يوان شهريا ، ولكن المساجد الصغيرة لا تربو نفقات كل منها على مائة يوان شهريا .

ولنفقات المساجد فى الصين المصادر التالية :

١ ــ ان اوقاف المساجد هى احد هذه المصادر . ويشار بالاوقاف الى العقارات حسب ما يفهمه المسلمون الصينيون . وهى تشتمل على الغرف والاراضى القابلة للايجار . هناك مساجد تأتى اوقافها من مواريث المسلمين الذين ليس لهم ورثة . وهناك مساجد تتكدس اوقافها شيئا فشيئا فى مجرى



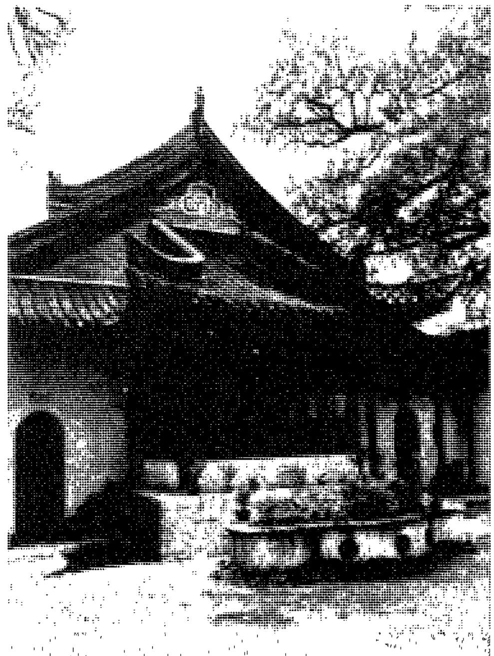
مسجد هوايشنغ (الحنين الى النبى) فى مدينة قوانغتشو. قيل انه شيد فى عهد اسرة تانغ (٦٢٨ ـ ٩٠٧ م) على يد الداعية العربى سعد ابى وقاص الذى جاء الصين لنشر الاسلام وهو اقدم مسجد فيها. تبدو منارة المسجد على شكل اسطوانة ، وهى مبنى لا مثيل له فى البلاد من حيث شكله المعمارى.



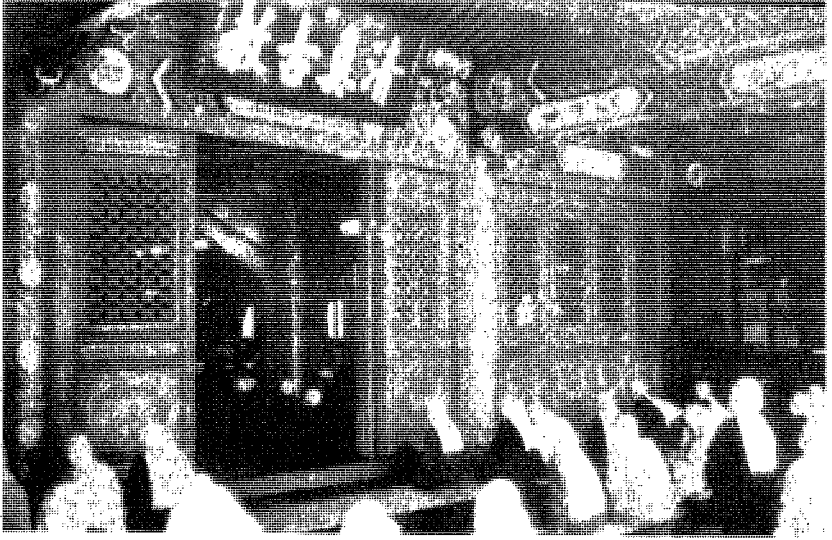
مسجد تشينغجينغ فى مدينة تشيوانتشو (مدينة الزيتون) يعود تاريخه الى سنة ١٠٠٩ م ، وهو من اقدم المساجد فى الصين. فى الصورة اليمنى : بوابة المسجد المبنية بالجرانيت . وفى الصورة العليا : عتبة احد ابوابه العليا المنقوشة بالآيات القرآنية .



مسجد فنغهوانغ (العنقاء) ، او مسجد تشنجياو . بمدينة هانغتشو من عل . انه مسجد قديم آخر فى الصين .

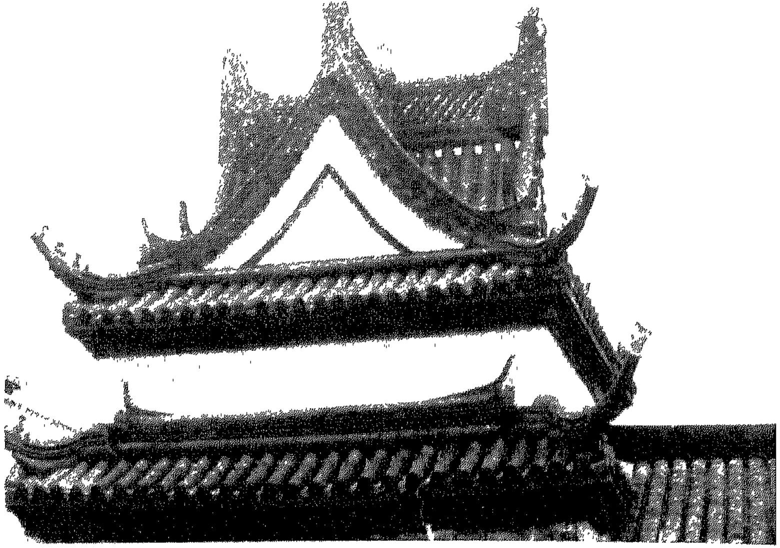


مسجد شيانخه (الكركى) بمدينة يانغتشو . . يعتبر مع مسجد هوايشنغ بمدينة قوانغتشو ومسجد تشينغجينغ بمدينة تشيوانتشو ومسجد فنغهوانغ بمدينة هانغتشو من المساجد الاربعة القديمة فى الصين .

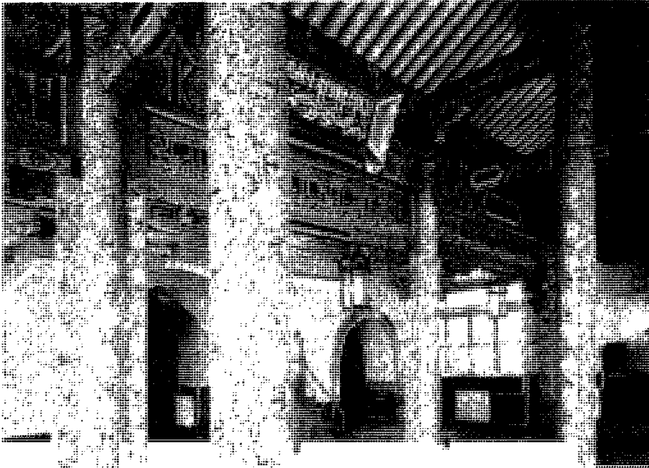




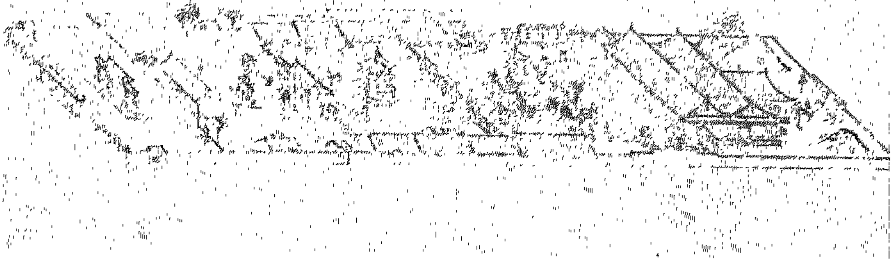
مسجد نيوجيه ببكين.. مسجد متميز بالاسلوب المعمارى الصينى التقليدى. فى الصورة العليا: مدخل قاعة الصلاة وفى الصورة اليسرى: مقصورة للانصاب الحجرية القيمة.



مقصورة المحراب لمسجد سونغجيانغ بشانغهاى . . وقد بنى هذا المسجد فى عهد اسرة يوان (١٢٧١ ـ ١٣٦٨ م) .

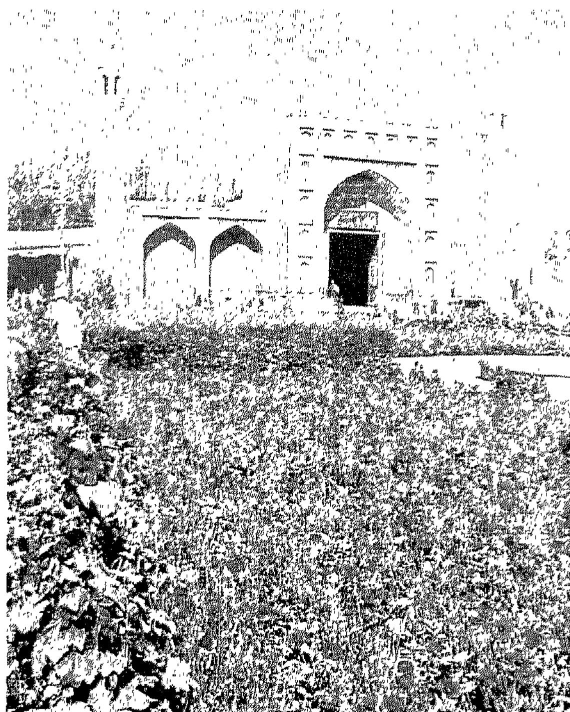


قاعة الصلاة فى مسجد دونغسى ببكين من الداخل . تزخرف جنبات اعمدة القاعة برسوم النيلوفر بدلا من صور التنين والعنقاء كما تبدو على الاعمدة العادية . ان هذا النوع من الرسوم جميل وبديع . واهم من ذلك انه لا يخالف الشريعة الاسلامية .

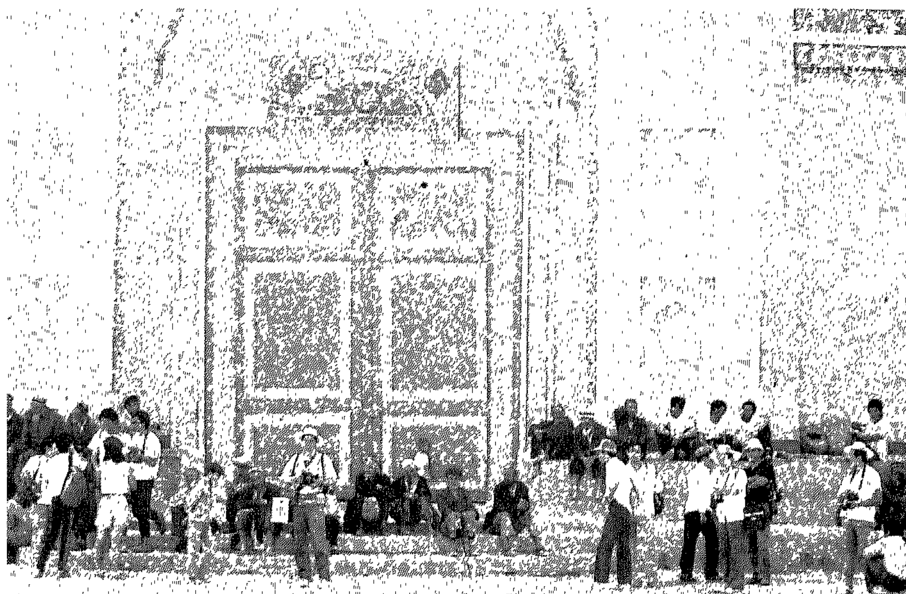


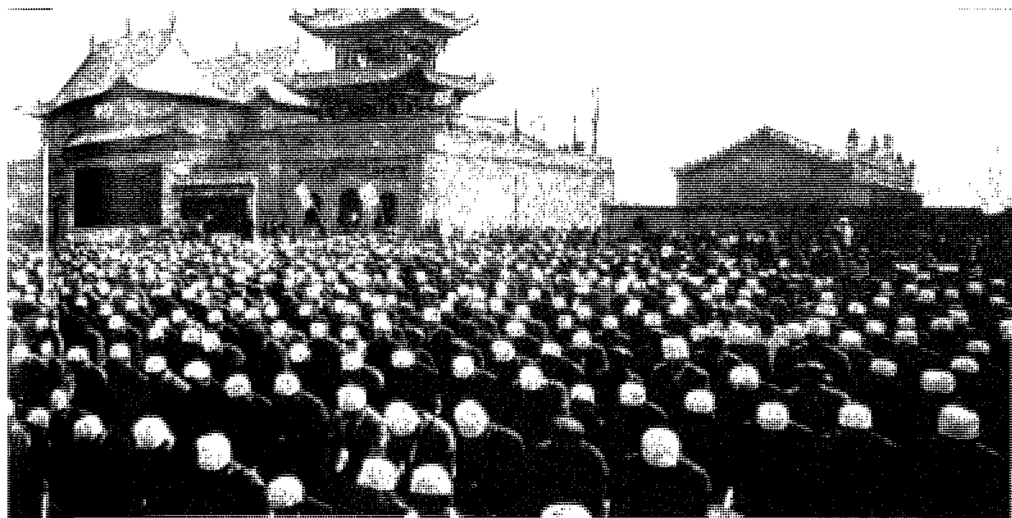
يغطي جامع هواجيوه بمدينة شيآن مساحة قدرها ١٣ الف متر مربع ، ويتكون من ٤ دور متلاصقة ، وهو من اكبر المساجد فى الصين . وعلى سقف قاعة الصلاة اكثر من ٦٠٠ رسم مكون من التسابيح الالهية والمدائح النبوية العربية . فوق : رسم للجامع . تحت : احد الرسوم على سقف قاعة الصلاة .





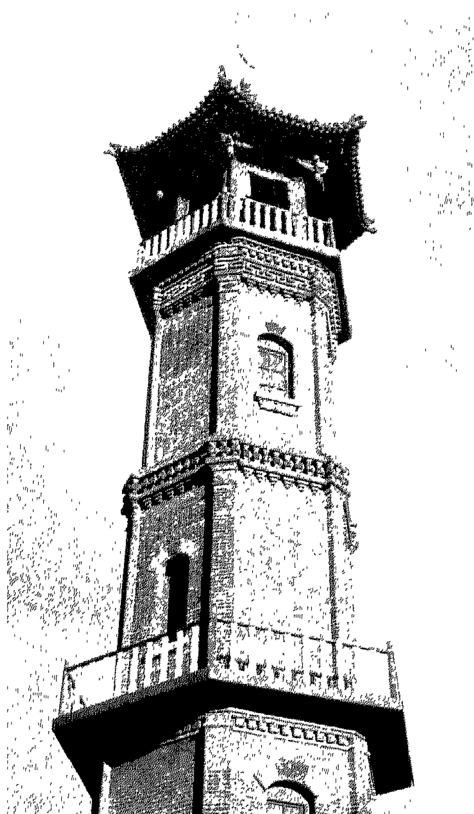
جامع عيد كاه بمدينة كاشغر في شينجيانغ . وهو اكبر جامع في الصين. الى اليمين: منظر خارجي من الجامع. الى الاسفل: بوابة الجامع.



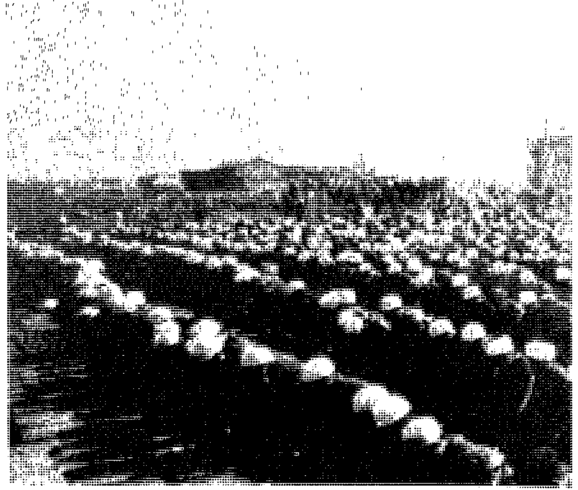




قاعة الصلاة وبرج مشاهدة الهلال لمسجد تشانغتشوز

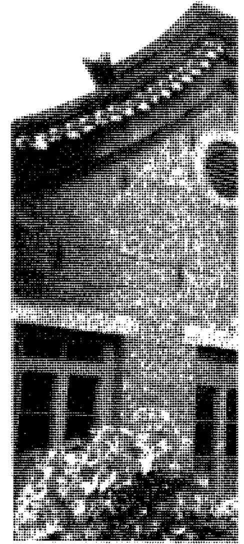


برج مشاهدة الهلال فى مسجد هوهيهوت .



يبدو جامع تونغشين بنينغشيا مهيبا جدا لوقوعه على المرتفعات ، ولكنه لا يستوعب جميع المصلين فى الاعياد الاسلامية . فى الصورة : المسلمون هناك يقيمون صلاة عيد الفطر فى الهواء الطلق خارج الجامع .





منظر خارجى لجامع جينينغ الشرقى الشبيه بمبانى القصور الامبراطورية جمالا ومهابة .



جامع شينينغ بمقاطعة تشينغهاى يغطى مساحة قدرها ١٣ر٦٠٠ متر مربع ، وهو من اكبر المساجد
فى الصين. الى الاعلى: قاعة الصلاة المتميزة بالاسلوب المعمارى الصينى التقليدى. الى الاسفل:
المسلمون هناك يؤدون صلاة الجمعة فى صحن الجامع .



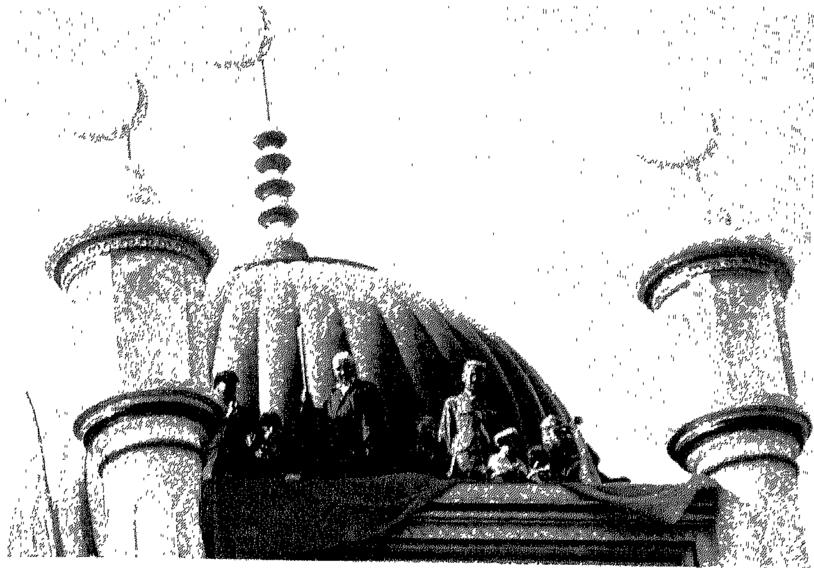
مشهد خارجي لمسجد هاربين .



جامع كوتشار فى شينجيانغ .

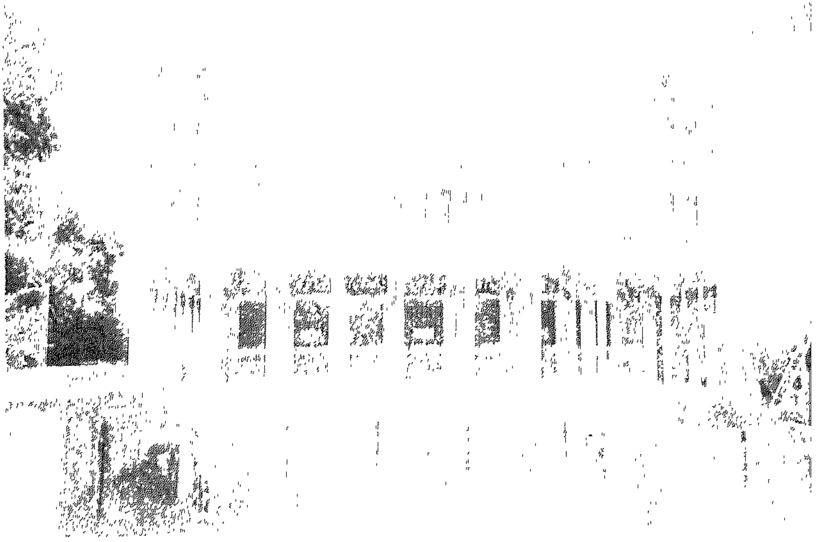


سجد صينى الطراز فى محافظة
ونغشيانغ بمقاطعة قانسو .

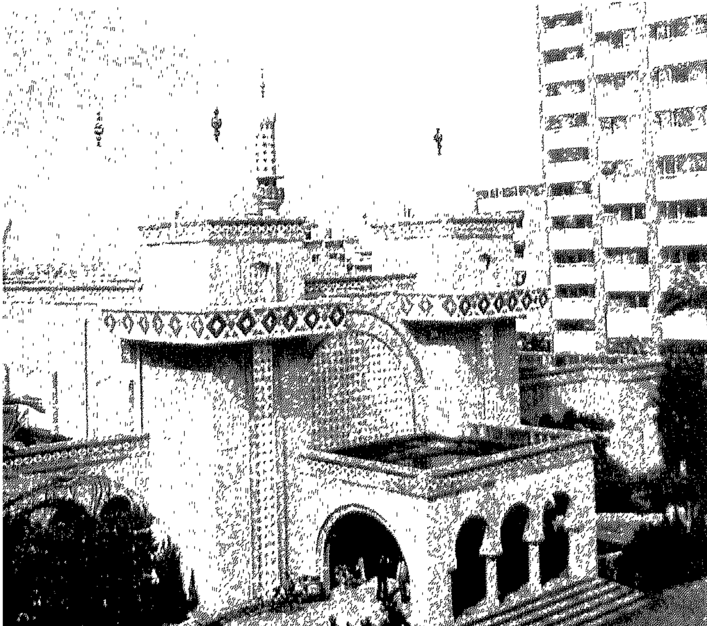


جامع نانقوان بمدينة اورومتشى . تم بناؤه حديثا ، ويتميز بالسمات المعمارية الاسلامية .

مسجد من مساجد ابناء قومية سالار فى محافظة شيونهوا بمقاطعة تشينغهاى .



مسجد شانغتشيتشيوان بمحافظة داتونغ فى مقاطعة تشينغهاى . يتفرد عن غيره من المساجد بجمعه فى آن واحد بين الشكل المعمارى الصينى التقليدى ونظيره الاسلامى .

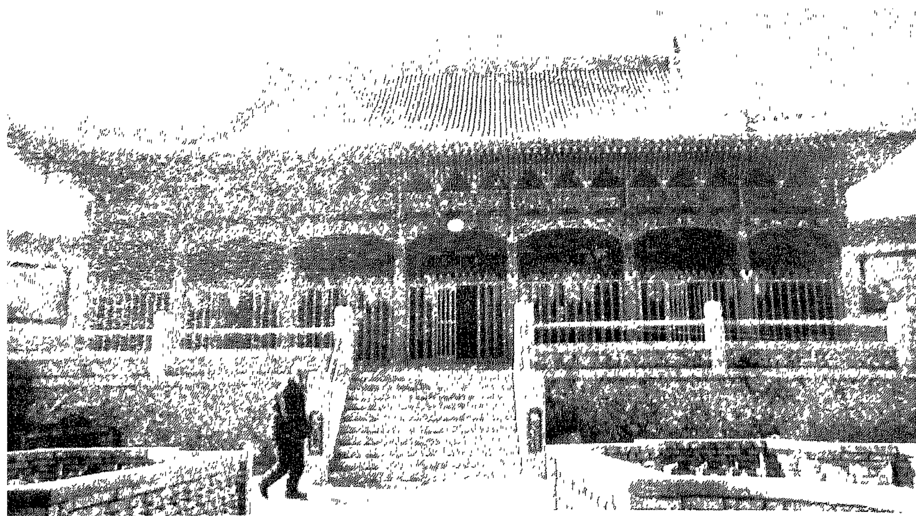


مجد تايبى المشيد
ـة ١٩٦٠ ، وهـو
كبر مسـجـد فى
وان .



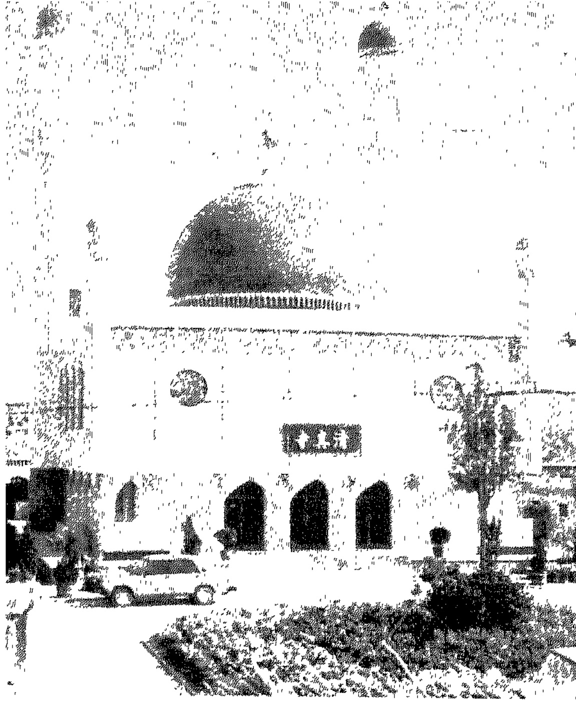
مسجد نانقوان بمدينة ينتشوان حاضرة نينغشيا . . تم
بناؤه فى مطلع الثمانينات من القرن الجارى .

مسجد فويوى فى مقاطعة جيلين .



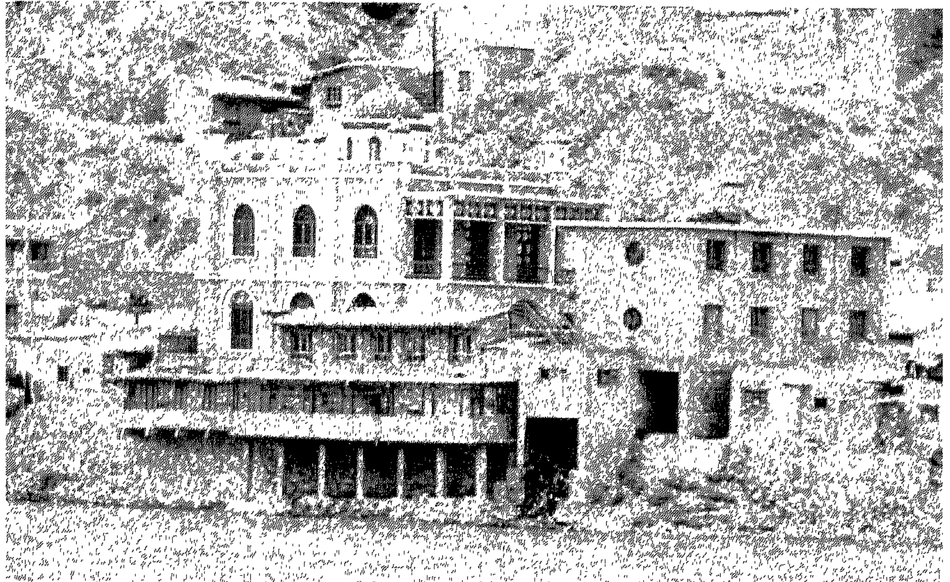
مسجد داتونغ بمقاطعة تشينغهاى .

احد المساجد فى « تيانياهايجياو » (ملتقى السماء والبحر) فى جزيرة هاينان .



مسجد مدينة تشينهوانغداو الذى تم بناؤه سنة ١٩٨٨ على حساب الكويت .

المسجد المطل على النهر الاصفر ف مدينة لانتشو .



تطورها . ولذلك فان حجم اوقاف المساجد مختلف . فلنأخذ الاراضى على سبيل المثال : كانت هناك مساجد يمتلك كل منها عشرات الهكتارات . وهناك مساجد لا يمتلك كل منها سوى ثلث او خمس الهكتار الواحد فقط . اما المساجد التى لا تملك اراضى وغرفا قابلة للايجار ، فقد كانت كثيرة جدا .

٢ — على الرغم من ان المسلمين الصينيين ليسوا شديدى التمسك بنظام الزكاة ، الا ان الذين يؤتون الزكاة اختياريا ليسوا بالقليل . ومنهم من يوزعها على المحتاجين ، ومنهم من يقدمها الى المساجد لدعم نفقاتها .

٣ — الاموال التى يتبرع بها المسلمون للمساجد لاحياء ذكرى مولد اسلافهم او ذكرى وفاتهم او لسلامتهم من المصائب .

٤ — التبرعات التى تجمع من المسلمين عند الضرورة .

وبعد تأميم جميع الاراضى فى الصين سنة ١٩٥٨ لم تعد المساجد تمتلك الاراضى . ومن اجل حل مشكلة نفقات المساجد كانت فرق الانتاج الزراعى المكونة من المسلمين تقدم نفقات المساجد فى الريف . اما مساجد المدن فقد كان باستطاعتها الحصول على نفقاتها عن طريق تأجير غرفها كالمعتاد . وخلال "الثورة الثقافية" تم تأميم جميع الغرف المؤجرة ، بما فيها غرف المساجد المعدة للايجار . وليس هذا فحسب ، بل تعرضت مبانيها المستخدمة للتخريب والتدمير ، فلا غرو ان تحول عدد من المساجد الى انقاض . اما المساجد التى سلمت من ايدى المدمرين بأعجوبة فقد كانت تستعمل لأغراض اخرى . وخلال اعادة افتتاح المساجد البالغ عددها اكثر من ٢٣٫٠٠٠ مسجد بعد انقضاء تلك المحنة العصيبة الزمت الحكومة الشعبية جميع الوحدات والافراد الذين اعتدوا على املاك المساجد المشروعة بأن يعيدوها الى المسلمين . وعلى هذا النحو استعادت كثير من المساجد الاملاك التى حرمت منها سنوات

عديدة على نحو غير قانونى . وتفاديا لمعاناة املاك الطوائف الدينية من الاعتداء مرة اخرى نص فى المادة رقم ٧٧ من « الاحكام العامة للقانون المدنى لجمهورية الصين الشعبية » (وقد اعلن عنها فى ١٢ ابريل ١٩٨٦ من قبل المجلس الوطنى لنواب الشعب وبدئ بتنفيذه اعتبارا من الفاتح من يناير ١٩٨٧) . . نص على " ان املاك المنظمات الاجتماعية بما فيها املاك المنظمات الدينية الشرعية محمية قانونيا . " معنى ذلك ان القانون هو الضمان لسلامة املاك المساجد الشرعية من الاعتداء ، الامر الذى اتاح للمسلمين ان ينشئوا انواعا شتى من المؤسسات الرابحة انتفاعا بعقارات المساجد . من ذلك مثلا ان فندق مسجد هايديان ، ومطحنة مسجد تشانغينغ ببكين ، ومحل اللحوم والمدبغة التابعين لمسجد محافظة نينغآن بمقاطعة هيلونغجيانغ . . كلها عادت بأرباح وفيرة . ولم يؤد ذلك الى توفير النفقات لهذه المساجد فحسب ، بل مكنها من ممارسة انواع شتى من النشاطات الخيرية . ومن اجل اطلاع القراء على احوال المؤسسات التى تديرها المساجد يسرنى القاء شيء من الضوء على النشاطات التجارية لأحد المساجد فيما يلى :

فى اواخر السبعينات واجه المسلمون فى داشيتشياو بمدينة ينغكو صعوبات اقتصادية فى اعادة بناء مسجدهم . وكان لديهم ثلاث طرق لحل المشكلة . . فالاولى هى الحصول على معونة مالية من الحكومة ، والثانية هى الاعتماد على التبرعات ، والثالثة هى الاهتداء الى طريق توفير الاموال اعتمادا على ممارسة النشاطات الرابحة . وفى آخر الامر تبين لهم ان الطريق الثالثة هى احسن مشروع لحل المشكلة . ففى سنة ١٩٨١ لجأ عدد من المسلمين المتحمسين للمصالح العامة الى توفير رأسمال بأنفسهم ، يفتحون به مجزرا . ومن هنا خطوا اول خطوة فى هذا المجال . وبفضل تميزهم بروح التضحية وبراعتهم فى تدبير الامور حققوا الفائدة الاقتصادية المرجوة ، فاستطاعوا تغطية جميع القروض

التى استدانوها بادئ ذى بدء . وقد تم ذلك فى نصف سنة ليس غير . وهذا ما دفعهم الى تأسيس مصنع اطعمة وعمل صويا على التوالى وازداد عدد العمال فى مؤسساتهم من عشرة عمال الى اكثر من اربعين عاملا فى هذا الوقت . وتمشيا مع تطور الانتاج وتجدد المعدات فى هذه للمؤسسات الثلاث بلغت قيمة مبيعاتها الاجمالية مليونا وتسعمائة وستين الف يوان حتى سنة ١٩٨٥ ، وزاد دخل المسجد الصافى خلال خمس سنوات على مائة واربعين الف يوان . وفى ظل ذلك تم للمسلمين هناك تحويل مسجدهم المتداعى الى مسجد جديد ، وتوفير مصدر مالى دائم ومضمون لتغطية نفقات المسجد اليومية . ولم يكتفوا بذلك بل ابتاعوا تلثى هكتار من الارض ، واتخذوها مقبرة اسلامية عامة . كما خصصوا جانبا من الاموال للتصدق على الايامى واليتامى والمساكين والمحتاجين . والفضل فى نجاح المسلمين هناك فى هذه المشاريع يعود الى روحهم السامية . . روح التضحية وايثار المصالح العامة على الخاصة بطبيعة الحال . وكانوا قد رفعوا فى بادئ الامر شعارا : " هدفنا من ممارسة النشاطات الرابحة هو تحقيق الاكتفاء الذاتى للمسجد وليس الاغتناء الشخصى قط . " وقد وفوا بعهدهم من خلال ممارساتهم الواقعية .

وقد شهدت مصادر اموال المساجد فى الصين تغيرات سارة فى ظل الوضع الجديد .

الفصل الرابع

الاشكال المعمارية لمساجد الصين

فى فجر الاسلام كانت مبانى المساجد بسيطة الى ابعد الحدود نتيجة اسوء الظروف المادية آنذاك . وقد ازداد المسلمون اهتماما بتحسين بناء المساجد مع انتشار الاسلام فى مشارق الارض ومغاربها ، فظهر الى حيز الوجود عدد من الجوامع ذات الشهرة العالمية ، مثل الجامع الاموى فى دمشق ، وجامع القرويين بفاس ، وجامع غرناطة بأسبانيا ، والجامع السليمانى باسطنبول . . الخ : وفى مجرى بناء المساجد اهتدى المعماريون المسلمون الى اسلوب معمارى اسلامى مهيب جميل بعد ان استلهموا بعض مزايا المبانى الرومية والفارسية . ولقد ترك هذا الاسلوب المعمارى تأثيراته فى مسجد هوايشنغ بمدينة قوانغتشو ومسجد تشينغجينغ بمدينة تشيوانتشو (التى كان العرب يسمونها مدينة الزيتون) وغيرها من المساجد القديمة ، وكذلك فى المساجد الصينية التى بنيت فى وقت متأخر مثل جامع عيد كاه بمدينة كاشغر . كما ترك تأثيراته فى الفن المعمارى التقليدى الصينى . ويتمثل ذلك فيما يلى :

١ ــ لقد كانت معظم الباغودات الطوبية فى الصين قبل دخول الاسلام مربعة او مسدسة او مثمنة الاركان ، وتخلو من السلالم فى داخلها . غير

ان المنارة الطوبية لمسجد هوايشنغ تظهر على شكل اسطوانة . وتتكون جدرانها من طبقتين ، وبداخلها سلمان لولبيان متقابلان يبلغ عدد درجات كليهما ١٥٤ درجة . ويمكن رؤية نافذة على جدرانها بعد عدة درجات ، وهذا التركيب الرائع للمنارة اثر فى الباغودات المبنية فى الصين فيما بعد . بدليل من ان اغلبيتها صار لها سلالم فى داخلها .

٢ — عرفت بلاد العرب بكفاءتها فى هندسة البناء الحجرى منذ القدم . فلا غرو ان يكون مسجد تشينغجينغ المبنى بالحجارة تماما آية فى الروعة من حيث هندسة بنائه . فجدران قاعة الصلاة والبوابة مثلا قد بنيت كلها بالاستفادة من البلاط المستطيل الشكل فى صف والبلاط المستطيل والمربع على التناوب فى صف آخر . . وهلم جرا . الامر الذى جعل الجدران المبنية على هذا النحو تبدو فى غاية الجمال . وبفضل ظهور مسجد تشينغجينغ فى مدينة تشيوانتشو انتقلت هندسة البناء الحجرى العربية الى الصين .

٣ — لقد كانت اشكال الابواب والنوافذ فى الصين قبل دخول الاسلام اليها فى اواسط القرن السابع رتيبة نسبيا لتكونها من الالواح الخشبية المستقيمة ليس غير . اما مثيلاتها فى المبانى الاسلامية الطراز فهى متنوعة الاشكال زاهية الالوان . خذ بوابة مسجد تشينغجينغ مثلا : تتربع هذه البوابة على قطعة مستطيلة من الارض . وتنقسم الى جزأين ، يسمى احدهما " المدخل الخارجى " المفتوح ، والآخر " المدخل الداخلى " المغلق . ويتكونان من اربعة عقود خوخية الشكل . وتزين العقدين الاول والثانى نقوش جميلة من الصخور الخضراء ، ويتباعد العقدان الثالث والرابع احدهما عن الآخر لوجود ممر بينهما . وهذا النوع من البوابات الاسلامية الطراز المتداخلة العقود قد ترك اثره فى الفن المعمارى الصينى .

٤ — ان المبانى الاسلامية الطراز مقببة غالبا . فما من احد رأى مسجد

عيد كاه بمدينة كاشغر ومسجد نانقوان بمدينة ينتشوان الا عرف انهما من المبانى الاسلامية فورا . وبعد دخول الاسلام الى الصين ازداد عدد المبانى المقببة فيها اكثر فأكثر ، مما ادى الى تنويع اشكال المبانى الصينية .

٥ ـ تتجلى روعة المبانى الاسلامية الطراز فى مرونتها فى تقسيم الفراغات وتوزيع الاجزاء بوجه عام ، وفى زخرفتها المعمارية بالرسوم والنقوش بوجه خاص . من ذلك ان التشكيلات الجصية والدهانات الماونة والنحوت الخشبية والمركبات المعمارية المصنوعة من الشرائح الخشبية الصغيرة الاحجام والنقوش الطوبية المتنوعة على هذا النوع من المبانى لا تتميز بأشكالها المشوقة الرائعة والوانها الزاهية فحسب ، بل تتميز ايضا بأساليب تعبيرية مختلفة ورسوم ملونة بما يبدو فيها من زخرفات فريدة الى جانب انسجام بعض هذه الزخرفات مع بعضها الآخر . فلا نبالغ اذا قلنا بأن الكثير من زخارفها جدير بأن يصنف فى عداد الصناعات الفنية الرائعة والمهارات الفريدة التى يرجع اليها المعماريون والفنانون فى الابداع الفنى والبحوث العلمية .

وبالاضافة الى ذلك فان مبانى المساجد الصينية القديمة المميزة بالاسلوب المعمارى الاسلامى تتوزع على نحو غير متناسق خلافا للمبانى التقليدية الصينية . والدليل على ذلك ان مآذن هذه المساجد غالبا ما تنتصب على يمين قاعات الصلاة بدلا من ان تقع معها على خط مستقيم . وبوابة مسجد تشينغجينغ تقوم على الجانب الشرقى من جداره الجنوبى . فلا يمكن للمرء ان يصل الى قاعة الصلاة الا بعد ان ينثنى الى الشمال سيرا فى ممر مؤد الى هناك . معنى ذلك ان بوابة المسجد لا تواجه قاعة الصلاة . وكان توزيع المبانى على هذا الشكل غريبا بالنسبة الى الصينيين .

وجملة القول ان الفن المعمارى الاسلامى كان مثار الاعجاب وسط الصينيين بميزته الخاصة . وان دخوله الى الصين قد قدم برهانا على التبادل الثقافى الصينى

العربى عبر التاريخ ، كما اسهم بقسط معين فى تنمية الفن المعمارى الصينى ايضا . وهذا هو سر ادراج الحكومات الشعبية من مختلف المستويات الكثير من المبانى الاسلامية الطراز فى قائمة اهم الآثار المحمية . ولذلك فقد سلمت اعداد منها من التدمير حتى خلال هوس " الثورة الثقافية " .

ومنذ اواسط القرن الثالث عشر على وجه التقريب بدئ ببناء المساجد فى الصين اعتمادا على الاسلوب الصينى التقليدى . وذلك الانسجام مع الظروف الصينية بطبيعة الحال . زد على ذلك ان اغراض المساجد فى الصين ازدادت مع مرور الايام . ولذلك فان المساجد على مثال نظيراتها خارج الصين تماما لا يتفق مع حاجة المسلمين الصينيين الواقعية .

ولا يخفى على احد ان المساجد المبنية حسب الاسلوب المعمارى الاسلامى عادة ما تتكون من قاعات الصلاة والمآذن والمواضئ دون ان تلحق بها مبان اضافية ، ولا تكون لها افنية الا نادرا . اما المساجد الصينية الطراز فتلحق بها كثير من المبانى الاضافية والافنية الفسيحة الى جانب مبانيها الرئيسية . ولنأخذ جامع دونغقوان بمدينة شينينغ مثالا على ذلك : تنوف مساحة قاعة صلاته على ١٠٠ر١ متر مربع ، غير ان مساحة مبانيه الاضافية تبلغ ٥٠٠ر٣ متر مربع . وان مساحة فنائه تشغل ٤٠٠ر٨ متر مربع . معنى ذلك ان مساحة قاعة الصلاة فيه اصغر من مساحة مبانيه الاضافية ، وان مساحة هذه الاخيرة اصغر من مساحة فنائه بكثير . وكذلك حال سائر مساجد الصين على وجه التقريب . وهذا يبين ان المساجد الصينية الطراز تختلف عن المساجد فى بقية اجزاء العالم اختلافا كبيرا . وعلاوة على ذلك فان هذا النوع من المساجد يخلو من المآذن على وجه العموم . ويعزى السبب فى ذلك الى ان علو مختلف انواع المبانى كان محددا من لدن الحكام الاقطاعيين ، وخاصة فى عاصمة البلاد . وحيث ان المآذن لا يمكنها ان تظهر فعاليتها الا اذا فاقت سائر المبانى

فى المساجد علوا ، لذلك اضطرت مساجد كثيرة ، الى الكف عن بناء المآذن . اما المساجد المتناثرة فى المناطق النائية التى كانت غير جادة فى تطبيق النصوص القانونية ، او التى كانت مناطق ضعيفة الحكم ، فوضعها مختلف . وبالاضافة الى ذلك فان هناك سببا آخر لعدم وجود المآذن فى مساجد الصين ، وهو ان المسلمين فى المناطق الداخلية من الصين غالبا ما يسكنون مع بنى وطنهم من غير المسلمين على نحو مختلط . فأصبح من عادة المؤذنين ان يؤذنوا بصوت خافت خوفا من ازعاج جيرانهم . والاذان فى الصين يتم قبل اقامة الصلاة مباشرة ، وليس هناك فترة معينة بين الاذان والصلاة كما نرى خارج الصين . ونعرف من ذلك ان الاذان فى الكثير من المناطق الداخلية من الصين قد غدا شكليا .

غير ان الكثير من المساجد الصينية الطراز تزهو بأبراج " مشاهدة الهلال " التى لا ترى خارج الصين . ومع ان هذا النوع من المبانى لا يمتاز بشكل معين ، الا انها اعلى من سائر مبانى المساجد بعض الشىء على وجه العموم . واغلبيتها تنتصب خلف قاعات الصلاة . وقد سميت بذلك لأنها كانت تستخدم فى مشاهدة هلال رمضان وشوال . ولكن قيمتها الزخرفية قد تجاوزت قيمتها الاستعمالية على كر العصور ، لأن الناس قلما يعتلونها لمشاهدة الهلال . ومع ذلك فان جدران هذه الابراج الملتصقة بقاعات الصلاة من الخلف تعتبر محاريب لائقة .

وتتجلى مزايا المسجد الصينى الطراز فى تناسق مبانيه وانسجامها مع بعضها بعضا ، وتوزع الرئيسى منها والملحق توزعا مناسبا ، مما يشكل وحدة متكاملة من المبانى الرائعة . اما قاعة الصلاة – اهم مبانى المسجد – فتقع فى غربى المسجد وتشكل مع جناحيه الجنوبى والشمالى وبوابته القائمة فى الشرق دارا مربعة (اى دار تحيط بها المبانى من جميع الجهات ، وتتوسطها فسحة

مربعة) . ولكن هناك كثيرا من المساجد ينقسم كل منها الى قسمين او ثلاثة او اربعة اقسام متراصة تفصلها المبانى ، مما يشكل مجموعة من الرحاب . ولكل قسم من هذه الاقسام وظيفته وميزته الفنية . ولو تمشيت من مدخل هذا النوع من المساجد الى الداخل لانتابك شعور بأن مناظره تتجدد من حين لآخر ، وان مبانيه تزداد روعة ، وان كان اسلوبها الفنى موحدا . اما جامع هواجيويه بمدينة شيآن فهو الافضل من نوعه . وينقسم هذا الجامع الى اربعة اقسام متلاصقة ، يخترقها خط محورى وهمى ، يبتدئ من الحاجز الزخرفى القائم فى اوسط طرف الجامع الشرقى ، وينتهى بمحراب قاعة الصلاة عبر القوس الخشبى والقوس الحجرى والمئذنة ومقصورة العنقاء وبرج مشاهدة الهلال . . على التوالى . والظريف ان الصدع بين مصراعى كل باب من ابواب جميع الاقسام يواجه الخط الاوسط الرأسى للمحراب دون ايما تفاوت . وعلى الرغم من ان هذه الميزة خاصة بالفن المعمارى الصينى التقليدى ، الا ان انعكاسها فى الجوامع والمساجد يحمل معنى عميقا ، حتى ايقال ان رؤية المحراب من مدخل المسجد على بعد المسافة بينهما ترمز الى ان المرء سيسير ، لو دخل المسجد ، على " الصراط المستقيم " المذكور فى فاتحة القرآن الكريم .

وبالاضافة الى ميزة المساجد الصينية الطراز المتمثلة فى مواجهتها الشرق وتميز بعضها بالمآذن وبعضها الآخر بأبراج مشاهدة الهلال ، ليس هناك فرق بينها وبين المبانى الصينية التقليدية مبدئيا (وهى تواجه الجنوب الى جانب خلوها من المبانى المذكورة اعلاه) : معنى ذلك ان هذا النوع من المساجد مثل جامع هواجيويه بمدينة شيآن ومسجد دونغسى ببكين والجامع الشرقى فى مدينة جينينغ تتسم بميزات المبانى الصينية التقليدية ، وخاصة فى مبانيها الرئيسية مثل قاعة الصلاة والبوابة والمئذنة . ان هذه المساجد المبنية

بالطوب والخشب على نحو رئيسى لا تسر الناظرين بأشكالها الخلابة والوانها الزاهية فحسب ، بل تشرح الصدور بصحونها الفسيحة شأنها شأن سائر المبانى الصينية التقليدية تماما . ومع ذلك فانها تتميز بسماتها الخاصة فى زخارفها الداخلية التى تشتمل على كتابات نافرة مذهبة من الآيات القرآنية على عقود قاعة الصلاة ، وصورة للبيت الحرام على المحراب تعلوها البسملة او الكلمة الطيبة ، ويزدان جانباها بعبارتين متوازيتين . وهناك مساجد تتزين جدران قاعات الصلاة فيها بكتابات نافرة من المواعظ الحسنة . كما ان هناك مساجد سقفت قاعات الصلاة فيها بالرسوم الملونة البهيجة المكونة من كتابات عربية . وهذه الزخارف الاسلامية كلها توحى الى القادمين بأن المبانى التى دخلوها عبارة عن مساجد وليست مبانى اخرى .

لقد عرفنا مما ذكر آنفا ان المساجد الصينية الطراز تجمع بين الفن المعمارى الصينى التقليدى والفن الزخرفى الاسلامى . فيجوز لنا القول بأن هذا النوع من المساجد يعد تجديدا فى الفن المعمارى الصينى التقليدى كما يعد جوهرة من جواهر الفن المعمارى الاسلامى العالمى . وقد ادرك المختصون بتاريخ المبانى الاسلامية ان المساجد الصينية الطراز تتميز بقيمتها الفنية ، كما اعتبروها من قبيل الفنون المعمارية الاسلامية العالمية .

من المعروف ان المساجد لا يسمح بزخرفتها برسوم ونقوش من الحيوانات الا ان المساجد الصينية الطراز كانت عادة ما تزخرف بنقوش من التنين والعنقاء والاسد والنمر باستثناء اجزاء قاعات الصلاة الداخلية . وكان هناك مسلمون امتنعوا عن استعمال هذا النوع من الزخارف وقت بنائهم المساجد لعلمهم ان ذلك يخالف احكام الدين . ولكن المسلمين فى اغلبية المناطق كانوا يرون ان ظهور صور الحيوانات والطيور فى المساجد لا حرج فيه ، مادامو يوقنون بالله تعالى ويعبدونه عبادة خالصة مستندين فى ذلك الى حديث الرسول

عليه الصلاة والسلام " وانما الاعمال بالنيات . . . " وبالاضافة الى ذلك فقد كانت اعداد من المساجد لا تخلو من الصبغات الكونفوشية . خذ مثلا ما ورد فى رقيم مسجد تشينغشيو بمدينة شيآن بقلم وانغ هونغ : " ولد النبى الغربى (يقصد به رسول الله صلى الله عليه وسلم) بعد كونفوشيوس ، ويتباعد موطنه عن موطنه ، ويختلف عهده عن عهده ، ولغته عن لغته ، ولكن تعاليم النبى الغربى تتفق مع تعاليم كونفوشيوس . ويعزى السبب فى ذلك الى ان قلبيهما من نمط واحد " . معنى ذلك ان الكونفوشية هى مقياس صحة الاسلام . ان هذه المقولة خاطئة تماما حسب وجهة النظر الاسلامية ، ذلك ان قيمة الاسلام لا تتوقف على موافقته الكونفوشية او عدم موافقته اياها . وليس هذا فحسب ، فهناك عدد من المساجد فيها الواح كتبت عليها تعاليم كونفوشية مثل " ارضخوا للقضاء والقدر ، واطيعوا اولى الامر وتعاليم النبى (يقصد به كونفوشيوس) " و" اياك والنظر الى القبائح والاستماع الى الاباطيل والتكلم بالفضائح وممارستها " . . الخ . اما فى عهد اسرة تشينغ (١٦٤٤ — ١٩١١ م) فقد اضطرت المساجد الصينية الى احتواء الواح كتب عليها " عاش الامبراطور الحالى ، عاش ، عاش ! " ولذلك فقد رأى عدد من المستشرقين ان الاسلام فى الصين قد " تكنفش " . وفى الحقيقة ان هذا الاستنتاج عار من الصحة اذ ان الصبغات التى فرضت على المساجد آنذاك كانت نتيجة ضغوط سياسية ليس الا .

ولما انتصرت ثورة ١٩١١ برئاسة الدكتور صون يات صن اخذت الوهابية تنتشر وسط المسلمين الصينيين بجهود الحاج البستانى (لقب الامام ما وان فو الذى ولد فى قرية قويوان — بمعنى " البستان " . وحين ادى فريضة الحج التصق به لقب " الحاج البستانى ") ، ومن هنا زالت الصبغات الكونفوشية عن المساجد الى حد كبير ، وطرأت تغيرات كبرى على ملامحها .

واول ما اختفى من المساجد بين عشية وضحاها الواح الهتاف بحياة الامبراطور . اما الالواح المميزة بالصبغات الكونفوشية فى المساجد فقد ازيلت من مواقعها على الاغلب . وفى الوقت ذاته بادر المسلمون فى المناطق المتأثرة تأثرا عميقا بأفكار الحاج البستانى الداعية الى " اتباع الكتاب والسنة ونبذ العادات السخيفة " الى ازالة صور الحيوانات والطيور من المساجد او نقلها الى اماكن اخرى . ولكن معظم المسلمين لم يحذوا حذوهم فى هذا الامر رغبة منهم فى الحفاظ على كمال مبانى المساجد . ومع ذلك فان المساجد التى بنيت بعد ثورة ١٩١١ قليلا ما ترى فيها صور الحيوانات والطيور . ومن اجل ابراز ميزات الاسلام اخذت علامة الهلال تزداد ظهورا على مبانى المساجد . وجدير بالذكر ان الكثير من المساجد المبنية حديثا صارت خليطا من الاسلوب المعمارى الصينى ونظيره الاسلامى . وكان مسجد تيانتشياو ببكين ومسجد تونغشين بنينغشيا من هذا القبيل . وبعد استعمال الاسمنت فى البناء المعمارى على نطاق واسع لم تعد المبانى العامة فى الصين تشيد على الاسلوب المعمارى الصينى التقليدى على وجه العموم . وفى ظل ذلك شهدت الصين عددا كبيرا من المساجد الاسمنتية التركيب والمميزة بالاسلوب المعمارى الاسلامى . ومن اشهرها جامع نانقوان فى مدينة ينتشوان ومسجد شاديان الغربى بمقاطعة يوننان ومسجد جينتشو بمقاطعة لياونينغ ومسجد تابيه بمقاطعة تايوان ومسجد جيولونغ فى هونغ كونغ .

الفصل الخامس

عدد المساجد فى الصين

لم يكن هناك احصاء دقيق خاص بعدد المساجد فى الصين ، ولكن الحولية التى نشرتها دار " تلغراف العالم " الامريكية سنة ١٩٤٨ تشير الى انه : " فى الصين اثنان واربعون الف مسجد " . ويبدو هذا الرقم مبالغا به لأول وهلة . والحقيقة انه اقرب الى الصحة . ذلك ان عدد المساجد الكبيرة والصغيرة فى شينجيانغ وحدها قد بلغ ٢٩ر٥٤٥ مسجدا سنة ١٩٥٨ حسب الاحصاءات التى قدمتها الحكومة المحلية . ومعنى ذلك انه كان لكل مائتى نسمة من المسلمين هناك مسجد ، حيث ان تعدادهم الاجمالى آنذاك قد بلغ ٧ر٠٤٨ر٨٠٠ نسمة (حوالى ٥٠ بالمائة من مجموع المسلمين الصينيين) ، الامر الذى يقدم دليلا على ان المعطيات الواردة فى الحولية الامريكية المذكورة لا تخلو من المستندات ، كما يبين لنا ان عدد المساجد فى الصين كان كبيرا جدا .

ان بناء المساجد فى الصين كان مرتبطا دائما بهجرة المسلمين واستصلاحهم الاراضى البور وفقا للنظام العسكرى ، وبمستوى تطورهم الاقتصادى علما ان انتشار المساجد كان يتفق مع توزع المسلمين . اما فى عهد اسرة يوان

(١٢٧١ – ١٣٦٨ م) فقد بنيت اعداد كبيرة من المساجد جنوب نهر اليانغتسى بسبب هجرة كثير من المسلمين من الفئات العليا الى هناك . واما فى اواسط عهد اسرة مينغ (١٣٦٨ – ١٦٤٤ م) والفترات اللاحقة له ، فقد ظهرت مجموعة كبيرة من المساجد على ضفتى القناة الكبرى التى كانت مزدحمة بناقلات الحبوب من الجنوب الى الشمال . زد على ذلك ان تطور الزراعة والمواصلات والصناعة والتجارة الحديثة دائما ما كان يؤدى الى ازدياد عدد المساجد . من ذلك ان شانغهاى وبكين وتيانجين وغيرها من المدن الكبيرة لم يكن فيها الا قليل من المساجد ، ولكن هجرة المزيد من المسلمين اليها فى ظل تطورها صناعيا وتجاريا فيما بعد قد ادى الى ازدياد المساجد هناك .

ولقد كان هناك كثير من الدوافع التاريخية والاجتماعية التى تركت اثرها فى ازدياد المساجد ، وتتلخص فيما يلى :

١ – الدافع المذهبى

لقد كان معظم المسلمين المهاجرين الى الصين فى ابكر وقت من اهل السنة ، بينما كان من بين المسلمين المهاجرين اليها فى اواسط القرن الثالث عشر عدد كبير من اهل الشيعة . ولكن اهل السنة احتاوا مكانة رئيسية بين الجاليات الاسلامية فى الصين عبر اختلاطهم بأهل الشيعة مدة طويلة . ومع ذلك فان بصمات الشيعة ما زالت واضحة فى حياة المسلمين الصينيين المعاصرين . ويتمثل ذلك فى انهم ظلوا يسمون اساتذة المدارس المسجدية " الائمة " وتلامذتهم " الخلفاء " ، ويفضلون اللون الاخضر ويمجدون الامام على بن ابى طالب رضى الله عنه بطلا ابلى فى كل معركة بلاء حسنا ، ويخلدون ذكرى السيدة فاطمة رضى الله عنها ، ويهتمون بيوم عاشوراء ، الى جانب ان هناك ثمانية مبادئ دينية شائعة وسطهم وهى : " الايمان بوحدانية الله ،

والاعتراف بعدالته ، وتبجيل النبى ، وتعظيم الامام (يقصد به الامام على) ، والامر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، والابتعاد عن الخونة ومعاشرة الصالحين . " على ان جميع المسلمين الصينيين يعلنون انهم من اهل السنة ، ولا يعترف اى منهم بأنه شيعى . ومنذ انتشار الصوفية من بلاد العرب وآسيا الوسطى الى شمال الصين الغربى فى القرن السابع عشر ، اختلطت هذه الصوفية بالحضارة التقليدية والعادات الصينية ، مما شكل اربعة مذاهب صوفية مميزة بالسمات الصينية وهى : القادرية والخفية والجهرية والكبرية ، علما ان كل مذهب من هذه المذاهب قد انقسم الى عدة طوائف فى نهاية الامر . وفى الوقت ذاته بدئ بتسمية المسلمين الصينيين الذين لم يقبلوا الصوفية " اصحاب المذهب القديم " . ومن جراء تعدد المذاهب الدينية وقع المسلمون الصينيون فى معمعان الصراع المذهبى ، مما دفع عددا منهم الى بناء المساجد الخاصة بمذاهبهم . وفى ظل هذا الوضع ازداد عدد المساجد فى الصين اكثر من ذى قبل . ولكن هذه المذاهب الصوفية الاربعة لم تنتشر الا فى شمال الصين الغربى ، الى جانب قليل من المناطق الداخلية . وفى اوائل القرن الجارى اخذ الحاج البستانى ما وان فو الذى تأثر بالوهابية فى موسم الحج فى تعميم مذهب " الاخوان " الداعى الى " اتباع الكتاب والسنة ونبذ العادات السخيفة " واستعادة اصالة الاسلام . وكان هذا المذهب قد جوبه فى بداية الامر بمعارضة شديدة من " المذهب القديم " والمذاهب الصوفية الاربعة . وحيث ان الصين كانت قد دخلت فى العصر الجديد ، وان بعض وجهات نظر مذهب الاخوان قد واكب تيار العصر ، فقد اخذ مذهب الاخوان هذا يلقى قبولا تدريجيا لدى كثير من المسلمين فى مختلف انحاء البلاد . وبدافع من التعصب المذهبى بنى عدد آخر من المساجد ، مثل مسجد سانييتشوانغ بمدينة تيانجين ، ومسجد زقاق وانغجيا بمدينة كايفنغ ، والمسجد

الغربى بمحافظة تساوشيان بمقاطعة شاندونغ . . الخ .

٢ — دافع التعصب الاقليمى

يتحلى المسلمون الصينيون بروح الاستثمار . فقد كان من عادتهم ان يغادروا ديارهم الى اماكن اخرى افواجا افواجا ليأكلوا من رزقها . وكلما استوطنوا مكانا ما ، اقبلوا على بناء مسجد فيه . وكان ذلك فى الاماكن الخالية من المساجد (مثل بلدة تشوجى ومدينة شيويتشو) وكذلك فى الاماكن غير المحرومة منها ابدا . ونتيجة لذلك فقد تم بناء عدد كبير من المساجد بدافع من التعصب الاقليمى مثل مسجد شانييتانغ بمدينة كايفنغ ، ومسجد ليويتشنغ بمدينة تشنغتشو ، ومسجد تيانجين بمدينة بنغبو ، ومسجد تيانتشياو ببكين ، ومسجد ليوبينغ بمدينة بينغليانغ ، ومسجد بينتشو بمدينة اورومتشى . . الخ . اما قرية سانغبوه (وهى موطن الشيخ محمد تواضع بانغ شى تشيان) بمحافظة منغشيان من مقاطعة خنان فقد كان فيها ٧٠٠ اسرة مسلمة ، ولهم سبعة مساجد ، وقد انتقل منهم ما يقارب مئتى اسرة فى فترة حرب المقاومة ضد اليابان الى مدينة بينغليانغ بمقاطعة قانسو . وعلى الرغم من ان المساجد فى هذه المدينة كانت متوفرة ، الا ان هؤلاء المهاجرين قاموا ببناء خمسة مساجد جديدة ، على حين ان المساجد السبعة فى قريتهم ظلت مفتوحة الابواب كالمعتاد . ويعتبر ذلك خير دليل على ازدياد المساجد بدافع من التعصب الاقليمى .

٣ — دافع من توزع المسلمين توزعا مبعثرا

بالاضافة الى قيام السيد " هو " ببناء مسجده فى مدينة شيويتشو بعد وقت قصير من انتقاله اليها كما اسلفنا فى الفصل السابق ، فقد بنى مسجد فى محافظة تايقو بمقاطعة شانشى على الرغم من انه لم يكن فيها سوى اسرتين

من المسلمين . اما المساجد التى شيدت على ايدى اسر معدودات ، فقد كان عددها كبيرا يتعذر احصاؤه .

٤ ـ دافع التعصب الاسرى

لقد كانت هناك اسر غنية تتسابق فى بناء المساجد اظهارا منها لقوتها الاقتصادية . فلو بنت اسرة " أ " مثلا مسجدا ، بنت اسرة " ب " مسجدا آخر . . وهلم جرا . وعلى هذا النحو ظهر عدد من المساجد الاسرية فى مختلف المناطق من الصين ، مثل مسجد اسرة تشانغ ومسجد اسرة وانغ ومسجد اسرة ما . . الخ . ومن المسلم به بناء المساجد الاسرية اذا كانت ضرورية . ولكنك تجد مسجدين فى قرية دونغنان بمحافظة بواى من مقاطعة خنان ، وليس فى هذه القرية الا اسرتان ، تحمل احداهما اسم " شان " ، وتحمل الاخرى اسم " تشنغ " . فلا نخالف الصواب اذا قلنا ان ذلك اسراف بحت .

زد على ذلك ان هناك كثيرا من المساجد بنيت فى حالات استثنائية . فمثلا حين كان الشيخ تشانغ تشى مى ـ مؤسس مدرسة شاندونغ ـ يعمل اماما فى جامع شونخه بمدينة جينينغ لقى معارضة من بعض المسلمين بسبب الخلاف بينه وبينهم فيما يختص بأحكام الصلاة الجماعية . وفى هذه الحالة "لجأ كل من اتبعوا تعاليم الشيخ المذكور الى الناحية الغربية (من المدينة) ، حيث بنوا جامعا جديدا " حسب ما ورد فى التدوينات التاريخية . وقد عرف هذا الجامع فى المدينة باسم " الجامع الغربى " فيما بعد . وهناك مثل آخر : عندما كانت قوات اسرة تشينغ تقوم بقمع الاقليات القومية فى شينجيانغ فى القرن الثامن عشر ، وقعت فى قبضتهم فتاة جميلة تدعى اسلام خان ، فجلبت الى بكين ، حيث منحها الامبراطور تشيان لونغ لقب " المحظية "

ومن ثم " المحظية الشريفة " اعجابا بجمالها . وحيث ان هذه الفتاة مسلمة مخلصة فقد رفضت منحة الامبراطور هذه رفضا قاطعا . فبالاضافة الى ادائها الصلوات الخمس يوميا كانت اما ان تتمشى فى حرم البلاط الامبراطورى واما ان تختلط بحسان البلاط . وكلما جاءها الامبراطور اعرضت عنه . ومع ذلك ظل يبذل كل ما فى وسعه لاسترضائها من شدة حبه اياها . هذا وقد بنى مسجدا فى زقاق أنفو خارج القصر مما اتاح لوالديها واقربائها المقيمين فى بكين ان يمارسوا عباداتهم . وهو المسجد المعروف باسم " هويهوويينغ " ببكين . وهناك مثل ثالث : فى عهد اسرة مينغ (١٣٦٨ - ١٦٤٤ م) كان اهل قرية خينغ فى ضواحى بكين مهددين على الدوام بلدغات حية شريرة ، يقع وكرها فى جبل مانغشان خلف القرية . وفى اثناء بناء مقبرة اباطرة اسرة مينغ مر الحاج بوه من شمال الصين الغربى بالجبل ذات مرة حيث انبرى للحية بجرأة فائقة . وانتهى به الامر الى قتلها مضحيا بحياته . فبنى الاهالى والمسؤولون عن بناء المقبرة مسجدا فى القرية تخليدا لذكرى الحاج بوه الذى ضحى بحياته من اجل سلامة الاهالى هناك .

لقد كانت المسلمات الصينيات يصلين وراء المسلمين فى المساجد ، او يصلين فى بيوتهن ، شأنهن شأن اخواتهن فى بقية انحاء العالم . ثم ظهرت الستائر فى بعض المساجد ، من شأنها فصل الرجال عن النساء . وبالاضافة الى ذلك فقد كان هناك عدد من المساجد خصصت فيها اركان للمصليات . ومنذ قرابة مائة سنة بنيت مساجد للنساء فى بعض المناطق الصينية (وهى نادرة الوجود خارج الصين) تيسيرا لممارسة المسلمات عباداتهن ودراستهن المعارف الدينية . وبعض هذه المساجد تابع لمساجد الرجال ، وبعضها الآخر مستقل عنها من حيث البناء والنفقات على حد سواء . ولكل مسجد نساء شيخة مسؤولة عن رعاية المسلمات فى امور الدين . اما الشيخات المتخصصات فيتم توظيفهن

رسميا ، بينما مثيلاتهن غير المتفرغات منهن فهن غالبا من زوجات ائمة مساجد الرجال . وعلى الرغم من ان مساجد النساء صغيرة الحجم على وجه العموم ، الا ان عددها ليس بالقليل لأن الكثير من الاماكن تزهو بمساجد الرجال والنساء فى آن واحد . وعلاوة على ذلك فان عدد مساجد النساء قد تجاوز عدد مساجد الرجال فى بعض الاماكن . فمثلا ، ليس فى ناحية كايفنغ الشرقية المأهولة بالمسلمين الا جامع واحد فقط للرجال ، بينما فيها اربعة مساجد للنساء .

وقد كان لهذه الدوافع اثرها فى كثرة المساجد بالصين . وقد اصبح جزء من هذه المساجد مهجورا لسبب او لآخر . بينما البقية الباقية منها اما اغلقت ابوابها ، واما استعملت لأغراض اخرى خلال " الثورة الثقافية " . اما المساجد المعاد افتتاحها فقد زاد عددها على ٢٣ الف مسجد . وهى تسد حاجة المسلمين الصينيين على حد قول الوحدة المسؤولة عن الشؤون الدينية فى الصين .

الفصل السادس

مهام المساجد فى الصين

ان المساجد فى مختلف البلدان لا تفتح ابوابها الا فى اوقات الصلاة . ولكن لمساجد الصين مهام اخرى بالاضافة الى استخدامها لاقامة الصلاة . ومن هذه المهام :

١ ـ نشر المعارف الدينية

لقد كان المسجد مكانا للسائلين والمتعلمين ، يتلقون فيه التعاليم الاسلامية . وبفضل ازدياد وسائل الدعوة الاسلامية فى البلدان الاسلامية تضاءل شأن منبر الرسالة الالهية والدعوة المحمدية فى المساجد بعض الشىء ، وخاصة بعد ظهور الخطب المحددة مسبقا . ولكن المسلمين الصينيين تنقصهم وسائل الدعوة الاسلامية خلافا لاخوتهم فى البلدان الاسلامية . وهذا ما جعل مساجد الصين هى التى تقوم بنشر المعارف الدينية .

وقد ظلت مساجد الصين تحافظ على تقاليد القاء الخطب باللغة العربية فى ايام الجمعة والعيدين المباركين ، ولكن الامر فقد اهميته بالنسبة الى المستمعين الناطقين باللغة الصينية . فاهتدى العلماء الصينيون الى طريق نشر المعارف

الدينية المتناسب مع مقتضى الحال فى الصين وهو ان يلقى الائمة محاضرات دينية (تسمى عندنا المواعظ) باللغة الصينية قبل قيام صلاة الجمعة والعيدين المباركين . وقد اصبح هذا الاسلوب متداولا وسطهم جيلا بعد جيل ، مما ترك اثره العظيم فى اظهار الاسلام . اما " المواعظ " فليس لها صياغات ثابتة . فيمكن للواعظ ان يوضح مسألة دينية على ضوء آية او عدة آيات من القرآن الكريم ، ويمكنه ان يسهب فى الحديث عن شمائل النبى عليه الصلاة والسلام وسائر الانبياء عليهم السلام والصالحين الاولين رضى الله عنهم ، مما يدفع المستمعين الى الاقتداء بهم ليصبحوا صالحين . كما يمكنه ان يتطرق الى اوامر الدين ونواهيه . والعادة ان يلقى هذه المواعظ امام كل مسجد . فاذا كان هناك علماء زائرون التمس الائمة منهم ان يحلوا محلهم فى الامر تعظيما لهم واكراما . ولا تلقى المواعظ فى ايام الجمعة والعيدين المباركين فحسب ، بل يمكن ان تلقى فى احتفالات ذكرى المولد النبوى وعيد ذكرى السيدة فاطمة ويوم عاشوراء ، وحتى فى مراسم الجنائز وحفلات الزفاف فى بعض المناطق . اما مواعظ الواعظين غير ذوى الكفاءة فغالبا ما تبدو رتيبة مملة لعدم طرقها موضوعات حية : ولكن المواعظ التى يلقيها الواعظون المهرة ، فانها تأخذ بالالباب ، ذلك انها غالبا ما تهدف الى توضيح الموضوعات العميقة المعانى بما قل ودل من التعبيرات ، اعتمادا على كفاءة اصحابها فى علوم الدين وعمقهم فى فهم الاحكام والاركان الاسلامية وفصاحة ألسنتهم وسمو اخلاقهم ، الى جانب استفادتهم من حركات ايديهم عند اللزوم . وكلما انتقل حديث هؤلاء الواعظين الى امور تثير الخشوع والخوف ، تجد المستمعين تفيض اعينهم بالدمع من شدة انفعالهم وخشيتهم . وكلما انتقل حديثهم الى رحمة الله ونعمته تجدهم يغرقون فى نشوة السرور والابتهاج . وكان من بين هؤلاء الواعظين : الشيخ ما تشانغ تشينغ بمقاطعة خنان والشيخ

وانغ هاو ران ببكين والشيخ ها قوه تشن بشانغهاى والشيخ دا بو شنغ بمقاطعة آنهوى والشيخ وانغ تسى تشونغ بنينغشيا ، وما يزالون الى وقتنا هذا يحظون بالاستحسان والتبجيل فى هذا المجال .

ومن مهام ائمة المساجد شرح احكام الدين فى كل حين حسب طلب المسلمين ، اذا سألوهم عن اى شىء يخص الدين فى حياتهم . ويتضح لنا من ذلك ان المساجد فى الصين ليست مجرد هيئات للدعوة الاسلامية ، بل هيئات للافتاء ايضا .

٢ ــ التعليم الدينى

اذا قلنا ان اعمال الدعوة هى قوة دافعة لتطور الاسلام ، جاز لنا القول بأن التعليم الدينى هو اساس تطوره . فقد كان النبى عليه الصلاة والسلام والخلفاء الراشدون يدعون الى التعليم الدينى فى الوقت الذى اولوا فيه الدعوة الاسلامية بالغ اهتمامهم . وقد ظلت المساجد قواعد تعليم دينى ردحا طويلا من الزمن . بيد ان الدور الذى تلعبه المساجد خارج الصين فى التعليم الدينى قد تضاءل بالتدريج بعد ان تحول الكثير من الجوامع الى مدارس دينية مستقلة ، وظهر عدد كبير من المدارس الدينية النظامية . ونظرا الى ان المدارس الدينية النظامية فى الصين ما زالت فى طور النمو ، فقد ظلت المساجد فيها تتكلف بمهمة اعداد رجال الدين على مدار اكثر من ١٫٣٠٠ سنة . معنى ذلك ان افتتاح المدارس هو من ابرز مهام المساجد فى الصين . فمن الضرورى تخصيص المزيد من الصفحات فيما بعد للتعريف بالمدارس المسجدية الصينية لأهمية هذا الموضوع .

٣ ــ استقبال الضيوف ومساعدة المحتاجين

عرف المسلمون الصينيون بالتضامن والتواد فيما بينهم . فمن المأثور

عنهم " ان المعوزين منهم لا يحتاجون الى اعداد نفقات السفر ، وان كانت رحلتهم طويلة جدا . " اما المساجد فى الصين فقد ظلت خير موئل للمسلمين المحتاجين على مدار اكثر من الف سنة ، لأنها تفتح ابوابها للمسلمين الذين يلجأون اليها طلبا للايواء المؤقت ايا كانت اسبابه . فمن بينهم علماء يواجهون صعوبات فى سفرهم ، ومسنون فقراء ليس لهم اقرباء يلجأون اليهم ، ومكفوفون لا قدرة لديهم على العمل . . الخ . وكلما جاء هؤلاء المحتاجون الى المساجد للاقامة المؤقتة قوبلوا على الغالب بالترحيب وحسن الضيافة . ومن العادات التى تتبعها المساجد الميسورة الحال اقتصاديا ان تخصص اموالا من اوقافها لهذا الغرض . اما المساجد ذات الظروف الاقتصادية الصعبة فتجد ائمتها ومتولى امورها المضيافين يسرهم دائما ايواء المنقطعين والمحتاجين واطعامهم بقدر المستطاع . زد على ذلك ان عددا من المساجد يسرها ان تجمع التبرعات من عامة المسلمين هناك للتصدق على المحتاجين عند مغادرتهم . وقد كان مما قاله الشيخ محمد تواضع بانغ شى تشيان فى كتابه تحت عنوان « ٩ سنوات فى مصر » : " خلال يومين من مكوثنا هناك (اى فى مسجد فوتشو) قوبلنا بحسن الضيافة عند وانغ شين تشى وغيره من المسلمين . واكثر من ذلك ان امام المسجد اشترى لنا تذاكر القطار على حسابه . وقد كنا ممتنين لهم غاية الامتنان على عظيم كرمهم . . وخلال تحدثنا مع هؤلاء المسلمين الذين لا تربطنا بهم معرفة مسبقة ، وجدناهم كأنهم من اشقائنا تماما ، الامر الذى اكد لدينا صحة القول ان المسلمين فى كل الربوع من اسرة واحدة . "

وفى ايام تأجج نيران الحرب او تفاقم الكوارث الطبيعية اعتادت المساجد المقتدرة ان تتخذ الاجراءات المناسبة لمساعدة المحتاجين بقدر المستطاع . فمثلا : عندما عانت مقاطعة خنان من وطأة الكوارث الطبيعية سنة ١٩٤٣

شن الكثير من المساجد المحلية حملات اطعام ، مستغلة خلال ذلك اوقافها او لاجئة الى جمع التبرعات من مختلف القطاعات . وهناك ايضا مثل آخر : لما شن الغزاة اليابانيون حربهم ضد الصين فى شانغهاى بتاريخ ١٣ اغسطس ١٩٣٧ غدا المسلمون المهاجرون الى المدينة من كل مكان منكوبين . وازاء هذا الوضع المؤلم سرعان ما انبرى الشيخ ها قوه تشن ، امام مسجد شارع تشجيانغ آنذاك ، فدعا المحسنين من المسلمين هناك الى مناقشة هذا الامر . وقد نتج من جهوده تأسيس دار ، من شأنها ايواء اعداد كبيرة من المنكوبين ، فنجوا بذلك من التشريد . ونستدل من ذلك على ان المساجد فى الصين تلعب دور الهيئات الخيرية عند الضرورة .

٤ ــ معالجة الشؤون الدينية الروتينية التى يتلخص اهمها فيما يلى

(أ) بعد ولادة كل طفل فى اية اسرة مسلمة يتعين على ذويه الذهاب به الى المسجد ليقوم الامام بتأدية الاذان فى اذن الوليد ، مما يجعل هذا الوليد يسمع صوت " الله اكبر " فى الايام الاولى من قدومه الى عالمنا هذا . ثم يختار له الامام اسما اسلاميا مثل ابراهيم او يعقوب او يوسف او هارون او موسى او عيسى او ابو بكر او عمر او عثمان او على او حسن او حسين . . الخ . واذا كانت انثى سميت مريم او عائشة او سليمة او زينب او فاطمة او فاتنة . . الخ . (ب) الاشراف على عقد القران : يتعين على اهل العروسين ان يستدعوا امام المسجد الى الاشراف على عقد القران . ويعتبر ذلك من تقاليد المسلمين الصينيين التى ظل يتمسك بها اغلبيتهم حتى بعد تطبيق نظام تسجيل الزواج الرسمى فى الصين . ويتم عقد القران فى بيت العريس غالبا ، فبعد ان تتم كافة الاستعدادات يحضر الامام حيث يتولى عقد القران ، فيقرأ الخطبة الثابتة : " بسم الله الرحمن الرحيم . . النكاح باذن الله تعالى وسنة نبينا

محمد صلى الله عليه وسلم وسنن الانبياء عليهم السلام وباجماع العلماء رحمهم الله وباختيار الوالدين وبشهادة الشاهدين الحاضرين وبالمهر المقدر ، تزف هذه المخطوبة لهذا الخاطب . . " بعد التلاوة يسأل الامام العريس : " هل قبلت ؟ " فيكون الجواب : " نعم " ؛ ثم يسأل العروس : " هل قبلت ؟ " وهكذا . ثم يوزع التمر والفول السوداني والحلويات الموضوعة على المائدة على الاطفال الذين تجدهم يتهافتون على المأكولات بسرور وابتهاج . وهكذا تنتهي مراسم القران وسط صيحاتهم وضوضائهم . (ج) ومن ابرز مهام المساجد فى الصين تدبير امور الجنائز بالنسبة لأموات المسلمين . وطبقا للتقاليد المتبعة فى التجمعات الاسلامية الصينية لا بد لأهل المحتضر من استدعاء امام المسجد ليجلس بمحاذاة فراشه ثم يذكره بالكلمة الطيبة بصوت مسموع لئلا ينسى ذكر الله سبحانه وهو فى حالة الحشرجة . وحين يموت يعرى من ثيابه بأسرع ما يمكن قبل ان يتجمد جثمانه لنقله الى التابوت الخشبي المنقول من المسجد وتغطيته بقطعة من القماش الابيض . . واثر ذلك يأتى مغسل الى هناك لتغسيل الميت وتكفينه ، ثم ينقل الى النعش ليصلى عليه المسلمون حيث يؤمهم امام المسجد . وجدير بالذكر ان المسلمين الصينيين شديدو الاهتمام باحياء امواتهم فى اليوم السابع وفى اليوم الاربعين ولدى حلول الذكرى السنوية الاولى والثالثة والخامسة والعاشرة من وفاتهم . وفى كل مناسبة من هذه المناسبات يتعين على اهل الميت ان يستقدموا امام المسجد ليتلو آيات من الذكر الحكيم ، ويدعو الله بأن يغفر لأعزائهم المرحومين وان يتغمدهم برضوانه فى دار البقاء . (د) نظرا الى ان المسلمين الصينيين يرون ان لحوم الابقار والاغنام والدجاج والبط لا يمكن اعتبارها حلالا الا بعد ذبحها على الطريقة الاسلامية ، سواء أ كانت للاستعمالات الذاتية ام للتجارة ، فان المساجد فى الصين تسد حاجتهم فى هذه الناحية . وهى اما

تحدد ذباحين متخصصين ، واما تكلف بعض موظفيها بتولى هذه المهمة .

٥ ـ ممارسة الالعاب الرياضية

من فحوى الحديث النبوى الشريف : " العقل السليم فى الجسم السليم " ادرك المسلمون الصينيون حق الادراك اهمية الرياضة البدنية ، فعمدوا الى ممارسة الالعاب الرياضية على وجه العموم . ولذلك فان ألعاب الووشو (اى الكونغفو) شائعة بين المسلمين ، وخاصة مسلمى شاندونغ وخنان وشنشى وخبى وآنهوى ولياونينغ ونينغشيا وغيرها من المناطق . ويتخذون افنية المساجد عادة مراكز تدريبية لألعاب الووشو . فهناك كثير من المساجد تضم مدربين رياضيين متخصصين . فمثلا ، سبق للجامع الشرقى فى مدينة كايفنغ ان استقدم الملاكم الشهير شن يو سان من بكين لتدريب المسلمين هناك على الملاكمة . وبعد ان توفى حل محله ابنه شن شاو سان ، حيث عمل اعواما طوالا . وهناك كثير من الائمة ليسوا بارعين فى ألعاب الووشو فحسب ، بل يعملون مدربين الى جانب امامتهم للمساجد . فالشيخ دينغ تشنغ تشى ، مثلا ، امام الجامع الشرقى فى محافظة ييدو بمقاطعة شاندونغ ، كان قبل حرب المقاومة ضد اليابان يشار اليه بالبنان فى تدريب المسلمين على ألعاب الووشو فى اوقات فراغه من الشؤون الدينية . اما الآن فتجرى فى مسجد بداخل مركز المحافظة نفسها دورة تدريبية خاصة لألعاب الووشو ، يشترك فيها ما يقارب ٢٠٠ مسلم . ولا تفوتنا الاشارة الى ان مدرسة ألعاب الووشو التابعة لمسجد تشانغتشيو فى محافظة يانغقو بمقاطعة شاندونغ قد تم لها بجهود الامام ـ المدرب الشيخ وو قوى شيانغ اعداد ٣٦٠ بطلا ونيف فى ألعاب الووشو خلال اكثر من عشرين سنة مضت . ومن بين تلامذته البطل يانغ جيان مى الذى فاز بالمرتبة الاولى فى مباريات ألعاب الووشو على نطاق البلاد . هذا

وقد انتخب الشيخ وو قوى شيانغ مدربا رياضيا نموذجيا فى الصين . ان امثال الشيخ وو الذى ساهم بنصيب كبير فى تطوير ألعاب الووشو قليلون بطبيعة الحال . ولكن ممارسة الالعاب الرياضية فى المساجد ليست نادرة .

٦ – تسوية الخلافات بين المسلمين

فى القرن التاسع اشار سليمان العربى الذى ذكر فى صدر الكتاب الى ان امير المؤمنين فى قوانغتشو آنذاك كان يؤم المصلين ، ويحكم بين المسلمين هناك فى آن واحد ، مما قدم دليلا على ان الشريعة الاسلامية كانت سارية المفعول فى التجمعات الاسلامية الصينية . وعلى الرغم من ان امتيازات المساجد فى النظر الى الدعاوى المدنية قد ألغيت قانونيا منذ عهد اسرة مينغ (١٣٦٨ – ١٦٤٤ م) ، الا ان المسلمين فى كثير من المناطق ظلوا يطالبون ائمة المساجد بالحكم بينهم حين تقع فيما بينهم خلافات ، وذلك بدافع من ثقتهم التامة بهم . والائمة يبذلون جهودهم عادة لاجراء الصلح بين الطرفين المتخاصمين وفقا لمبادئ التسامح الاسلامية . وفعالية التعاليم الدينية تؤدى الى الاصلاح بينهما فى اغلب الاحيان . وعلاوة على ذلك يسر عامة المسلمين ان يستشيروا الائمة فى تزويج اولادهم وبناتهم وعلاج الامراض وما شابه ذلك من الامور الحياتية .

وصفوة القول ان مهام المساجد فى الصين متنوعة . وهى بطبيعتها مراكز لنشاطات المسلمين الدينية والاجتماعية فى آن واحد .

الفصل السابع

اجهزة المساجد فى الصين

ليس فى حوزتنا معلومات خاصة بأجهزة مساجد الصين التى بنيت فى ابكر وقت . لقد عرفنا من رقيم مسجد تشينغجينغ بمدينة تشيوانتشو ان اجهزته كانت تشتمل على شيخ الاسلام والامام والمتولى والخطيب والمؤذن كما سبق ان ذكرنا . وهذه الاجهزة هى الاكمل من نوعها ، اذ انها لا تسد حاجة المسلمين من حيث ممارسة العبادات فحسب ، بل تضمن شؤون الافتاء والدعوة الاسلامية والنواحى الاخرى . واغلب الظن ان كل من شغلوا هذه الوظائف فى مسجد تشينغجينغ كانوا ينتخبون عن طريق الشورى بين المسلمين طبقا لمبادئ الاسلام القاضية بتوظيف اهل العلم والفضل . ولكن هذا النوع من التقاليد الحميدة حل محله النظام الوراثى مع مرور الايام . ويفيدنا « تصريح الامام » المحفوظ فى مسجد دونغسى ببكين : " ان الامام " ما " كان اماما بالوراثة . وفى عهد هونغوو (١٣٦٨ — ١٣٩٨ م) منحت اسرته اسما صينيا . وفى عهد هونغتشى (١٤٨٨ — ١٥٠٥ م) منحت تصريحا رسميا ، تولت بموجبه امور المسجد ، وظل ابناء هذه الاسرة يتوارثون امامة المسجد جيلا بعد جيل حتى الآن . . . " وهذا يدل على ان نظام الامامة الوراثى فى الصين قد اتبع فى الفترة ما بين القرنين الخامس عشر والسادس عشر . وقد ترك آثارا سلبية

فى إعداد رجال الدين الاكفاء ونشر الاسلام على حد سواء . لذلك ظهر وضع كئيب بائس فى تاريخ التعليم الاسلامى الصينى ، تمثل فى العبارة التى تقول " نقصان الكتب الدينية وتضاؤل الاكفاء فى علوم الدين" . ومنذ دعا الشيخ هو دنغ تشو (١٥٢٢ ــ ١٥٩٧ م) الى تطوير التعليم الدينى فى اواسط القرن السادس عشر اسست المساجد فى مختلف المناطق مدارس دينية على نطاق واسع ، مما جعل الاغلبية العظمى من رجال الدين الذين تولوا امامة المساجد وراثيا يواجهون تحديات خطيرة .لأن امكاناتهم كانت مقصورة على معالجة الشؤون الدينية الروتينية فقط ، فلم يتمكنوا من اعداد جيل جديد من علماء الاسلام الاكفاء لقلة معارفهم الدينية . ومن اجل تطوير التعليم الدينى اضطرت اعداد من المساجد التى اسست فيها مدارس دينية الى استقدام المعلمين ليضطلعوا بمهمة التعليم فيها ، على حين ان نظام الامامة الوراثى المتبع فى المساجد ظل مستمرا . ونظرا الى ان مدة عمل هؤلاء المعلمين كانت محددة ، الى جانب ان اختصاصاتهم كانت مقصورة على التعليم ، فقد كانت مكانتهم فى المساجد منخفضة فى بداية الامر . الا ان تفوقهم على الائمة بالوراثة علما وفضلا رفع من مكانتهم فى نظر المسلمين بالتدريج . وبالمقابل فان الائمة بالوراثة ضعف شأنهم وبهتت مكانتهم من جراء ذلك . وكان مما ورد فى «موجز تاريخ آداب المعاشرة الدينية» من كتاب «تاريخ نيوجيه» رواية تقول : " فى عهد الامبراطور كانغ شى (١٦٦٢ ــ ١٧٢٢ م) كان هناك علامة يدعى وانغ يون تشينغ . وحين اتجه الى بكين للقيام بجولة تدريسية فى انحائها ، توجه عشرات المسنين والشباب من سكان قانغشانغ (شارع نيوجيه اليوم) على خيولهم وبغالهم الى ليانغشيانغ (على بعد عشرات الكيلومترات من بيوتهم) للترحيب بالوافد الكريم الذى كان فى نظرهم عالما نابغة . وقد فتحوا له باب المسجد الامامى (الذى لا يفتح الا فى عيد الفطر

وعيد الاضحى حتى يومنا هذا) على مصراعيه تعظيما له واكبارا . وبعد ان فتحوا له باب الجناح الشمالى فى المسجد قدموا لهذا العلامة الاطعمة والاقمشة ، واكرموا وفادته خير اكرام . وعلى الرغم من ان الامام الوراثى باى شى شيانغ كان معروفا وسط الجماهير بفصاحة لسانه وحسن معاشرته ، الا انه سلم على القادم بكل احترام ، وسأله عما لم يفهمه من معانى كتاب كان بين يديه حرصا منه على عدم مخالفته لارادة عامة المسلمين . " وهذه الرواية تعتبر دليلا حيويا على استعادة مسجد نيوجيه نظام الاستقدام الذى كان شائعا فى مساجد الصين .

وبفضل انتشار الوهابية الداعية الى " اتباع الكتاب والسنة ونبذ العادات السخيفة " وسط التجمعات الاسلامية الصينية ، وخاصة بعد انتصار ثورة ١٩١١ المعادية للاقطاع ، فقد النظام الوراثى فى المساجد شعبيته الى حد كبير . والدليل على ذلك ان مسجد تشينغخه فى ضواحى بكين نصب لوحا حجريا خاصا بالغاء نظام توارث الامامة الى الابد . وذلك تجسيد تام لرغبة المسلمين فى معارضة الاقطاع . وفى هذه الظروف التاريخية اخذت معظم المساجد فى اتباع نظام استقدام الائمة على اساس استفتاء عامة المسلمين ، باستثناء المساجد الصوفية فى شمال غربى الصين ، تلك التى يجرى توظيف ائمتها على ايدى مرشدى الصوفية . اما عدد المساجد التى تتبع نظام استقدام الائمة ، وتحافظ على النظام الوراثى فى آن واحد ، فقد اصبح ضئيلا جدا .

تتكون اجهزة المساجد فى الصين من مجموعتين تختص احداهما بالشؤون الادارية والاخرى بالشؤون الدينية .

اما القائمون بالاعمال الادارية فى مساجد الصين فقد جرت العادة على تسميتهم " شيتو " او " شيانغلاو " (المتولون) . ويتم انتخاب متولى كل مسجد من بين المسلمين المنتمين اليه . ويختلف عددهم باختلاف المساجد .

فلبعضها ثلاثة ــ خمسة اشخاص ، ولبعضها بضعة عشر شخصا . ومن اختصاصاتهم الاشراف على العقارات والانشاءات الاساسية والشؤون المالية واعداد العدة لمختلف النشاطات الدينية وتوظيف رجال المساجد . . الخ . وبما ان ادارة شؤون المساجد من الاعمال الصالحة فلا يتقاضى المتولون اجرا مقابل عملهم ، وليس هذا فحسب ، بل يتبرعون بالاموال عند اللزوم ، وخاصة بالنسبة الى متولى المساجد الحديثة البناء . ومع ان هناك من يعملون متولين فى المساجد بدافع حب الظهور الا ان اغلبية المتولين يخدمون المساجد بأمانة واخلاص . ولقد لعبوا دورا لا يستهان به ابدا فى ازدهار الاسلام المطرد فى الصين . وبعد ولادة الصين الجديدة اسست المساجد فى كافة انحاء البلاد مجالس ادارية ديمقراطية مسؤولة عن ادارة شؤونها بدلا من تسمية اعضائها متولين .

اما المسؤولون عن الشؤون الدينية فى مساجد الصين فمن ضمنهم :

١ ــ " آهون " :

هذه الكلمة لفظة مجانسة لكلمة " أخوند " باللغة الفارسية ، وهى تحمل معنى " المعلم " . ثم اطلق هذا اللقب على امام المسجد ، القائد الاعلى للشؤون الدينية فى المسجد . فعلى كل من يتولى هذه الوظيفة ان يكون من اهل الفضل والعلم . ومن اختصاصاته ممارسة الدعوة الاسلامية وتعليم طلبة المدارس المسجدية ومعالجة الشؤون الدينية الروتينية . ومن عادة المسلمين الصينيين ان يخاطبوا الائمة بلقب " الشيوخ " تعظيما لهم سواء أ كانوا مسنين ام شبابا ، تماما مثلما يخاطب علماء الاسلام خارج الصين . وحيث انه ليس هناك علاقات تبعية بين مسجد وآخر (باستثناء المساجد الصوفية) فان ائمة المساجد هم على قدم المساواة . ولكن تأثيراتهم الاجتماعية واوضاعهم الاقتصادية تختلف باختلاف احجام المساجد التى يعملون فيها . وقد وصف الشيخ محمد تواضع بانغ شى تشيان استقبال احد الجوامع امامه الجديد بقوله : " كان المسلمون

قد ذهبوا الى مكان على بعد عشرات الكيلومترات من قريتهم لاستقبال امامهم الجديد . وكان من بينهم من ألقى كلمة فى هذه المناسبة ترحيبا بقدوم الامام . ومما قاله تعابير ما زالت مطبوعة فى ذهنى حتى الآن وهى : من المفروض علينا ان نزخرف الظروف بالفوانيس والبيارق الزاهية الالوان ونغطى الجدران بالقماش المطرز والرسوم الجميلة . . . " وعندما تحدث الشيخ محمد تواضع عن الشيخ " ما " البويرى الذى كان يعمل اماما فى مسجد شانييتانغ فى مدينة كايفنغ قال : " كان يلزم كل تلاميذه بارتداء ازياء جميلة ونظيفة والانتظام فى طابور عند الدخول الى المصلى وقت كل صلاة من الصلوات الخمس يوميا . اما هو فكان يرتدى عادة الجاكيت الماندارى فوق جلبابه (وكان هذا النوع من الملابس بزة رسمية فى عهده) وكان اذا خرج الى الشارع لأمر ما انطلقت وراء عربته عدة عربات ، ترافقه دائما وابدا . " وقد عكست هذه التدوينات مكانة الائمة فى نظر المسلمين الصينيين ، كما برهنت على انهم كانوا يبدون كأرستقراطيين قدامى تماما . ولكن امثال هذا الامام المترف لم يكونوا كثيرين على كل حال . اما ائمة المساجد المتوسطة والصغيرة فعلى الرغم من انهم موضع الاحترام على وجه العموم ، الا ان دخلهم كان محدودا ، مع العلم ان كثيرا منهم ما كانوا ليستطيعوا اعالة اسرهم لو لم يلجأوا الى ممارسة الزراعة او بعض الحرف اليدوية فى اوقات فراغهم .

ينقسم الائمة الى درجات مختلفة اختلافا فعليا لأن المسلمين غالبا ما يتخذون اخلاقهم ومعارفهم وفصاحتهم وتصرفاتهم ومقدرتهم وسخاءهم مقياسا لمستواهم . وعموما يستقدم الائمة المتفوقون الى الجوامع ، ونظراؤهم المتوسطون الى المساجد العامة ونظراؤهم الضعفاء فى بعض النواحى الى المساجد الصغيرة . وكان هناك عدد من رجال الدين لم تتح لهم فرصة العمل ائمة لسبب ما

(كسوء سلوكهم مثلا) فلم يجدوا بدا من ان يبحثوا عن مخرج . اما رجال الدين الذين يعملون ائمة ، فلا يمكن القول بأنهم معصومون من البطالة لأن مدة عملهم فى المساجد محددة . ولكن الائمة الذين لهم شعبية واسعة بين المسلمين فمن المحتمل ان يستقدموا الى مساجد اخرى او تمدد خدمتهم قبل انتهاء المدة المحددة لهم . اما الائمة غير المطلوبين فى ناحية ما ، فلا مفر لهم من ان يستقيلوا من الخدمة قبيل انتهاء مدة عملهم المحددة .

٢ ــ الامام المتخصص :

مرتبة الامام المتخصص اقل شأنا من الامام العام . ومن اختصاصاتهم امامة المصلين ، والافتاء فى الاحكام والشرائع ، ومشاركة الامام العام فى معالجة الشؤون الدينية عند الضرورة .

٣ ــ الخطيب :

تأتى مرتبة الخطيب بعد مرتبة الامام المتخصص . وهو مسؤول عن إلقاء الخطب فى ايام الجمعة والعيدين المباركين ، وتلاوة الذكر الحكيم عند الطلب ، ومعالجة الشؤون الدينية الاخرى .

٤ ــ المؤذن :

تأتى مرتبته بعد مرتبة الخطيب . ومهمته ان يؤذن للصلاة ، ويعالج الشؤون الدينية الاخرى مثل الخطيب .

٥ ــ الذباح :

يتخصص بالذبح للمسلمين .

٦ ــ خادم المسجد :

وهو مسؤول عن تهيئة المياه الساخنة للوضوء والاغتسال ، وتنظيف المسجد ، وتقديم خدمات للامام والمصلين .

وجدير بالذكر ان جهاز المسجد الكامل الذى سبق ذكره لا يتمتع به

الا الجوامع . ويكتفى كل مسجد من المساجد المتوسطة بـ " الامام " و" الامام المساعد " و" الخادم " ، وكل من المساجد الصغيرة بـ " الامام " و" الخادم " او " الامام " وحده .

ورجال الدين فى الصين يتخذون المساجد عادة بيوتا لهم . لذلك ليست لهم ايام عطلة ، ولا جداول عمل ثابتة .

الفصل الثامن

التعليم المسجدى فى الصين

على مدار اكثر من سبعمائة سنة ، منذ دخول الاسلام الى الصين ، من اواسط القرن السابع الميلادى الى سقوط اسرة يوان (١٢٧١ — ١٣٦٨ م) ، كان معظم الائمة للمسلمين الصينيين يفدون من البلاد العربية ، الى جانب عدد من الطلاب العائدين بعد اكمال دراساتهم هناك بسبب انفتاح المواصلات بين الشرق والغرب آنذاك . بيد ان ذلك لا يعنى ان المسلمين الصينيين كانوا محرومين من التعليم الدينى خلال هذه الفترة الطويلة . ومما يؤسف له ان ليس هناك معلومات تاريخية تدل على توفره . غير ان هذا النوع من التعليم قد ظهر الى حيز الوجود منذ دخول الاسلام الى الصين حسب التقدير . ولو لا ذلك لما شهدت الصين علماء مثل الشيخ هو دنغ تشو المتعمق فى علوم الدين والواسع الاطلاع والشيخ وانغ داى يوى والشيخ تشانغ تشونغ اللذين لهما اياد بيضاء فى تأليف الكتب الاسلامية باللغة الصينية ، فهؤلاء العلماء الثلاثة كلهم ممن حصلوا علوم الدين فى الصين . وهذا يدل على ان التعليم الاسلامى يعود فى تاريخه الى زمن بعيد . ولكن عدد العلماء الصينيين الذين تم إعدادهم فى تلك الفترة قد يكون قليلا بسبب عدم ملاءمة الظروف التاريخية آنذاك كل الملاءمة .

وهناك كثير من المعطيات التاريخية تشير الى ان الشيخ هو دنغ تشو (١٥٢٢ ـ ١٥٩٧ م) هو اول من دعا الى التعليم الدينى ، باذلا فى سبيل ذلك قصارى جهده . وحيث انه قد اسهم بقسط كبير فى التعليم الاسلامى الصينى ، فقد لقبه المسلمون الصينيون " استاذ الاساتذة " تعظيما له واكبارا . اما سيرته ومآثره فقد سجلت بالتفصيل فى الكتابات المنقوشة على نصب « سيرة استاذ الاساتذة هو » (اختصر العنوان الى " السيرة " فيما بعد) و« تاريخ التعليم الاسلامى الصينى » (اختصر الى " التاريخ " فيما بعد) بالتفصيل . ويعتبر كلاهما من المعلومات الهامة التى يرجع اليها فى دراسة تاريخ التعليم الاسلامى فى الصين .

وتشير " السيرة " الى انه : " بعد انتشار ديننا فى الصين الواقعة فى مشرق العالم ازدادت اصول الدين غموضا بسبب نقصان الكتب الدينية على نحو مرعب ، وتضاؤل عدد العلماء الى ابعد حد . وبعد بروز الشيخ هو دنغ تشو ـ كنيته مينغ بو ـ سنة ١٥٢٢ عاد الاسلام فى الصين الى مجراه الطبيعى مع مرور الايام . انه من مواليد ويبين (ويتشنغ التابعة لشيانيانغ بمقاطعة شنشى اليوم) وقد تعلم الكونفوشية منذ طفولته الى شبابه ، ثم عدل عنها الى دراسة الشريعة الاسلامية على يد الشيخ قاو الذى هو من اهل ويبين كذلك . وقطع شوطا كبيرا فى هذا المضمار حتى اصبح متعمقا فى معانى القرآن الكريم والحديث الشريف وعلم التوحيد . فأخذ على عاتقه نشر الاسلام . وكان من عادته ان يطعم كل من جاءه لتحصيل العلم ويعلمهم بكل رضى . وعلى هذا النحو انقذ ديننا فى الصين من الزوال بعد ان اضطرب فيها مئات السنين . وكان من تلامذته النجباء فنغ وهاى واولادهما واحفادهما . وقد علموا الآخرين بدورهم ، الامر الذى جعل ديننا ينتعش فى البلاد . "

نستدل من هذه التدوينات بصورة مبسطة على مسيرة اقبال الشيخ هو على

انشاء التعليم الاسلامى فى الصين وعلى خلفية ظهور هذا التعليم وتأثيراته الكبيرة .

اما " التاريخ " فقد تم تأليفه بعد قرابة مائة سنة من وفاة الشيخ هو . ويعتبر اكمالا هاما " للسيرة " .

وقد جاء فيه ما يلى : " ان الاستاذ من اهل ويتشنغ . . وكان اغنى رجل فى موطنه . . وكان يميل الى قراءة الكتب الاسلامية ، بل تراوده الرغبة فى ترجمتها الى اللغة الصينية لاظهارها فى الصين الى ابد الآبدين . وبعد ان بلغ الخمسين من عمره توجه الى العاصمة حيث تتلمذ على مشاهر العلماء . . . " و"كان يدرس الكتب الاسلامية بجد واجتهاد من جهة ، ويفيد زملاءه دون ادنى تحفظ من جهة اخرى . وقد امضى سنوات فى الدراسة ، يسهر الليل من غير مدفأة فى الشتاء او مروحة فى الصيف . وبتأثير منه بدا الطليعيون من المسلمين كأنما استيقظوا من سبات ، فأحسوا بأهمية التعليم الدينى اكثر فأكثر . ومنذ ذاع صيت الشيخ هو فى البلاد من ادناها الى اقصاها ، تقاطر عليه طلاب العلم من مقاطعات جيانغسو وهوبى وخبى وشاندونغ جماعات جماعات ، لينهلوا العلم على يديه . . . " و" كان من بين ابرز تلامذته فنغ وهاى . فقد استوعبا علوم الدين وهما فى ريعان الشباب . ومنذ اكثر من مائة سنة حتى يومنا هذا (اى سنة ١٦٩٣) والتعليم الدينى يتداول بين العلماء جيلا بعد جيل . . . " و" بعد ان استولت اسرة تشينغ على مقاليد الحكم فى الصين ازداد عدد العلماء والاكفاء فى الصين كثيرا ، واصبحوا كالنجوم فى كبد السماء . وقد جاء ذلك نتاجا للجهد الجهيد الذى بذله الشيخ هو فى انشاء التعليم الدينى ، ولاقتداء المتأخرين به فى كشف النقاب عن المبهمات الدينية التى ظلت تؤرق المسلمين ردحا طويلا من الزمن وفى الاهتداء الى طريق تمييز الحق من الباطل . "

وهذه القطعة من التدوينات لا تقدم دليلا على صحة ما ورد ذكره فى

" السيرة " فحسب ، بل تلقى ضوءا قويا على سيرة الشيخ هو وموقفه من الدراسة وامله النبيل وازدهار قضيته المتصاعد .

وبالاضافة الى ذلك فقد عرفنا من " التاريخ " ان الشيخ هو كان جادا فى التعليم الى اقصى حد . فمن ذلك انه وضع خمسة مقاييس للعلماء المطلوبين جاءت فيما يلى :

أ ــ التعمق فى علوم الدين .

ب ــ اتقان التعليم والبراعة فيه .

ج ــ التحلى بالخصال الحميدة دون ادنى شائبة .

د ــ ضرب المثل للآخرين بالاقوال والافعال ، والقيام بالتوعية العامة .

و ــ الزهد فى الحياة الدنيا عن رضى وطيب خاطر .

وحين علق مؤلف " التاريخ " على اسهامات الشيخ هو فى سبيل الله ، قال متأثرا : " يا له من عالم منقطع النظير فى الصين ! " وقد صدق هذا القول . ذلك ان هذا العالم المتبحر فى علوم الدين والبارع فى التعليم ليس مؤهلا للقب " استاذ الاساتذة " فحسب ، بل كان شخصية عظيمة جدا فى تاريخ التعليم الاسلامى الصينى .

ومما يستحق الذكر ان الشيخ هو كان قد جعل من بيته مدرسة فى بادئ الامر ، ثم نقل مدرسته الى المسجد ، فسرعان ما عمت المدارس المسجدية كل مكان فى الصين . ثم تحولت المساجد الى قواعد للتعليم الاسلامى الصينى . ومن البدهى ان يرتبط ذلك بالاسباب التاريخية . اذ ان المساجد كانت مواقع تعليمية فى تاريخ الاسلام الى جانب كونها اماكن للعبادة . وخير دليل على ذلك ان جامعة القرويين وجامعة الازهر اللتين يرجع تاريخهما الى اكثر من الف سنة قد تطورتا اصلا من جامعين كانا يحملان الاسمين نفسيهما . زد على ذلك ان عددا من المساجد فى حظيرة الاسلام مازالت مقرات للكتاتيب

الاسلامية حتى يومنا هذا . وقد تبين لنا ان التعليم الاسلامى فى الصين قد ورث هذه التقاليد التعليمية الاسلامية العريقة ان صح التعبير .

تطور التعليم المسجدى

عرف الشيخ هو بكثرة تلاميذه . وكان الشيخان هاى وفنغ من ابرزهم حسب ما جاء فى "السيرة" و"التاريخ" . وبالاضافة الى المصدرين المذكورين هناك جدولان خاصان بأسماء تلاميذ الشيخ هو من الجيل الثانى والثالث والرابع والخامس . وقد دون احد الجدولين فى "التاريخ" ، والآخر فى بحث وضعه الشيخ محمد تواضع بانغ شى تشيان (١٩٠٠ – ١٩٥٨) استنادا الى الرواية المتداولة وسط المسلمين . وجدير بالذكر ان لهذين الجدولين اختلافا بسيطا فى ترتيب بعض تلاميذه . ويعزى السبب فى ذلك الى "انهم كانوا كثيرين كالنجوم" و"قادمين من شنشى وهوبى وتشجيانغ وخبى ويوننان وقوانغدونغ وغيرها من مختلف المقاطعات فى اوج ازدهار التعليم المسجدى ، فى عهد الامبراطور كانغ شى (١٦٦٢ – ١٧٢٢ م) . فمن المحتمل انه كان لتلاميذ الشيخ من الجيل الثانى والثالث والرابع . . الخ تأثيرات مختلفة باختلاف مواقع عملهم ومواطنهم ، ما عدا الشيخين هاى وفنغ المعترف بهما لدى الجميع . ومن ذلك ندرك ما للجدولين المذكورين من قيمة تاريخية .

وقد انقسم التعليم المسجدى الى مدرستين (او مذهبين علميين) فى عهد اسرة تشينغ ، وهما مدرسة شنشى ومدرسة شاندونغ . وكان للشيخ تشو لاو يه تأثيرات كبرى فى المدرسة الاولى ، بينما كان الشيخ تشانغ تشى مى مؤسس المدرسة الثانية . ويفيدنا جدول الشيخ بانغ شى تشيان بأن الشيخ تشو لاو يه هو تلميذ الشيخ هو من الجيل الرابع ، ويفيدنا الجدول المرفق بـ "التاريخ" بأن الشيخ تشانغ تشى مى هو كذلك تلميذ للشيخ هو من الجيل الرابع .

ويعتقد بأن الشيخ تشانغ كان يعيش فى عهد الامبراطور كانغ شى (١٦٦٢ — ١٧٢٢ م) على وجه التقريب . اما الشيخ تشو ، فلا نعرف الا اسم اسرته . واذا كان حقا تلميذا للشيخ هو ، وجب اعتباره من المعاصرين للشيخ تشانغ على نحو تقديرى .

ان الفرق بين مدرستى شنشى وشاندونغ يتمثل فى اختلاف اسلوبهما التعليمى . وحيث ان مقاطعة شنشى هى منشأ التعليم المسجدى ، كما انها المنطقة التى اكمل الشيخ تشانغ (مؤسس مدرسة شاندونغ) فيها دراساته ، فان مدرسة شنشى هى اقدم من مدرسة شاندونغ بطبيعة الحال . وان هذه الاخيرة هى التى تفرعت عن الاولى .

كانت مدرسة شنشى تدعو الى "سبر اغوار علوم الدين" وتركز جل اهتمامها على علم التوحيد خاصة ، حتى ليقال ان اكمال دراسة كتاب « العقائد » — تأليف نجم الدين عمر النسفى — فى مدرسة شنشى غالبا ما كان يستغرق عدة سنوات على الاقل ، ويحتاج الى اثنتى عشرة سنة على الاكثر . ونتيجة لذلك فقد كان العلماء الذين تخرجوا فى هذه المدرسة لا يستوعبون علوم الدين الكاملة الشاملة الا بصعوبة بالغة . وهذا يعنى ان كلا منهم كان يركز على دراسة قسم او قسمين من العلوم الدينية ليس غير . وكان اسلوب التعليم المتبع فى مدرسة شنشى دارجا فى مقاطعة شنشى وقانسو ويونان وخنان وآنهوى وجيانغسو وسيتشوان . . الخ . وقد تم لهذه المدرسة اعداد كثير من العلماء المجيدين علما وفضلا . وكان منهم علامة الاسلام الصينى المرموق المكانة الشيخ ما ده شين (١٧٩٤ — ١٨٧٤ م) والشيخان الاخوان يانغ تاى هنغ ويانغ تاى تشن والشيخ ما تشانغ تشينغ والشيخ ما تسى تشنغ والشيخ ما ليانغ جيون والشيخ لان يوه جيون وغيرهم من مشاهير العلماء فى التاريخ الاسلامى الصينى .

وقد سميت مدرسة شاندونغ بهذا الاسم لظهورها فى مدينة جينينغ التابعة لمقاطعة شاندونغ . وكانت هذه المدرسة تدعو الى " الاطلاع الواسع واستيعاب علوم الدين استيعابا شاملا " وتدرس فيها الكتب الاسلامية العربية والفارسية فى آن واحد . وقد عرفنا من « دراسات تاريخ الاسلام » بقلم السيد جين جى تانغ ان " الشيخ تشانغ تشى مى (مؤسس مدرسة شاندونغ) يلقب ' يون هوا ' . وكان من مواليد سمرقند . وعندما كان فى التاسعة من عمره جاء الى بكين مع عمه المكلف بتوصيل اسد الى امبراطور الصين آنذاك . ثم استوطن شنشى حيث تتلمذ على احد تلاميذ الشيخ هو دنغ تشو من الجيل الرابع (من الملاحظ ان الشيخ تشانغ نفسه من الجيل الرابع حسب ما جاء فى جدول " التاريخ ") . ولما اكمل دراساته فى شنشى غادرها الى مدينة جينينغ بمقاطعة شاندونغ ، حيث تزوج بفتاة من اسرة تشانغ ، فانضم الى عضويتها ، فعرف باسم ' تشانغ تشى مى ' . . وكان تشانغ متبحرا فى علوم الدين ومتقنا اللغة الفارسية خاصة ، كما كان عالما فذا فى علم التوحيد . وكان له تلاميذ فى جنوب الصين وشمالها . . . "

وكان الشيخ تشانغ ذكى الفؤاد جريئا فى تجديد الاسلوب التعليمى . وقد دعا الى دراسة انواع شتى من الكتب الاسلامية سواء أ كانت عربية ام فارسية ، حرصا منه على ان يستوعب طلاب العلم كافة فروع العلوم الاسلامية . وبذلك تكون له اسلوب تعليمى خاص به ، بل انتهى به الامر الى تأسيس مدرسة شاندونغ المتساوية مع مدرسة شنشى . وكان له عدد كبير من التلاميذ حتى ان " التاريخ " قال " ان العلماء الذين تم اعدادهم فى جيانغسو وهوبى وخبى وشنشى لا يمثلون ٥٠ بالمائة من العلماء الذين بزغوا على ضفاف نهر جيشوى (اى مدينة جينينغ منشأ مدرسة شاندونغ) ، بدليل ان فحول العلماء الذين برزوا فى مدرسته قد زاد عددهم على مائة عالم فى فترة من الفترات .

ولذلك جرت العادة على اعتبار جينينغ موطنا للعلماء . " وكان لمدرسة شاندونغ تأثيراتها الكبيرة ، لا سيما فى شمال الصين وشمالها الشرقى .

وكان هناك عالم آخر مرموق المكانة يدعى شه تشى لينغ ، ويلقب " يون شان " وهو من المعاصرين للشيخ تشانغ تشى مى . كان بعض الناس يقول انه من زملاء تشانغ فى الدراسة ، وبعضهم الآخر يقول انه من تلاميذه النجباء . وقد قدم " التاريخ " دليلا على صحة المقولة الثانية .

واشار السيد فو تونغ شيان فى كتابه « تاريخ الاسلام فى الصين » الى " ان شه تشى لينغ كان من تلاميذ الشيخ تشانغ ، وصار عالما مرموق المكانة فى غربى الصين ، عرف بلوذعيته الفائقة ، وله قدرة على تفسير القرآن الكريم آية آية على نحو مقنع تماما . وقد قام بالغاء ثمانية عشر امرا من الامور المخالفة للشريعة الاسلامية فى الصلاة وترتيل القرآن الكريم ومراسم الجنائز وعقد القران . وقد ظهرت ردود فعل شديدة فى التجمعات الاسلامية الصينية ازاء ما استحدث من امور ، واعتبره جماعة من المسلمين هناك من اصحاب البدع . ويشير ذلك الى ان احداث اى تغيير لم يكن مقبولا قط لدى الجميع " . ومن المؤكد ان هدف الشيخ شه من تجديداته هو اتباع الكتاب والسنة ونبذ العادات السخيفة ، وان كانت محتوياتها غير معروفة فى الوقت الحاضر . لهذا يجوز لنا القول بأنه رائد لا مثيل له من هذه الناحية .

ولا يعد الشيخ شه رائدا فى نبذ العادات السخيفة فى العبادات والمعاملات فحسب ، بل هو عالم تربوى مبدع . فقد كانت له مقاييس صارمة فى قبول الطلاب ، تتلخص فى النقاط التالية :

(١) جعل اولوية القبول للناشئين الاذكياء الصالحين للتربية .

(٢) عدم قبول طلاب فوق الثلاثين الا اذا تبين انهم من الموهوبين الحريصين على دراسة علوم الدين .

(٣) عدم قبول طلاب فوق الاربعين الا اذا كانوا جادين فى الدراسة ومتأدبين فى المعاشرة وزاهدين فى الحياة الدنيا ومواظبين على تهذيب انفسهم .

(٤) عدم قبول الاطفال .

(٥) جعل افضلية القبول للمخلصين الاقل ذكاء بدلا من الاذكياء الماكرين ، لأن المخلصين باستطاعتهم ان يفهموا معانى الكتب عبر جهود دائبة ، بينما الماكرون يفترون فى تحصيل العلم مع مرور الايام .

اما اسلوب التعليم الذى اتبعه الشيخ شه فيتمثل فى توضيح المواد الدراسية للطلاب ، وتركهم يقرأون ويحفظون . وكان يدعو المبتدئين الى قراءة المواد الدراسية ثلاثين مرة يوميا على الاقل . ولذلك فان الذين اكملوا دراساتهم على يده اقوى من المتخرجين فى المدارس الاخرى من حيث استيعاب المعارف . اذ انهم كانوا قادرين على استظهار المواد الدراسية بطلاقة تثير اعجاب السامعين .

وقد احتل العلماء المذكورون اعلاه مكانة هامة فى تاريخ التعليم الاسلامى الصينى ، ولعبوا دورا عظيما فى اعداد الاكفاء فى علوم الدين .

تنظيم التعليم المسجدى فى الصين

معروف ان تنظيم التعليم فى فجر الاسلام بسيط كل البساطة . وقد كان بامكان عالم وجاهل ان يشكلا مدرسة ما دام الاول يرضى بالتعليم والثانى يريد التعلم منه . وكان مثل هذا النوع من المدارس اما تحت شجرة نخيل واما فى خيمة . وقد اصبحت المساجد مواقع لائقة للسائلين والمتعلمين من المسلمين فى آخر الامر .

اما فى الصين فقد اتخذت المساجد قواعد للتعليم الاسلامى ، واسست فيها مدارس سميت "المدارس المسجدية" لوقوعها فيها . ويختلف عدد طلابها باختلاف الاوضاع الاقتصادية للمساجد التى تتبعها . فهناك مدارس ليس فى كل منها الا طالب او طالبان . وهناك مدارس يبلغ عدد الطلاب فى كل منها مائة طالب . وتفتح هذه المدارس ابوابها لجميع الذين تراودهم الرغبة فى دراسة علوم الدين . وليس لها مدة دراسية محددة ولا نظام امتحانى ، ويتولى ائمة المساجد التعليم فيها ، وتنقسم على وجه التقريب الى ثلاث مراحل : ابتدائية ومتوسطة وعالية : وجدير بالذكر ان عدد الطلاب يتضاءل اكثر فأكثر كلما ارتفعت المرحلة . معنى ذلك ان عدد الابتدائيين كثير ، وعدد المتوسطين قليل ، اما الذين يتابعون الى المرحلة العالية فهم اقل . ويعزى السبب فى ذلك الى ان المواد الدراسية فى هذه المدارس اكثر مما ينبغى ، الى جانب بدائية الاسلوب التعليمى المتبع فيها . ولذلك فان الطلاب لا يحققون غالبا النتائج الدراسية المنشودة ، وان كانوا يبذلون اقصى جهودهم فى الدراسة . والانكى من ذلك ان الطلاب يواجهون صعوبات بالغة فى الحصول على وظائف بعد اكمالهم الدراسات .

اما الابتدائيون فهم من الصبيان الذين التحقوا بالكتاتيب الاسلامية التابعة للمساجد . وتشتمل موادهم الدراسية على تهجية الحروف العربية ومختارات من القرآن الكريم وابجدية المعارف الاسلامية ، ودراسة هذه المحتويات تعتمد على الاستظهار الآلى تماما . واكمال هذه المرحلة يستغرق عادة سنتين . ومسألة انتقال الابتدائيين الى المرحلة المتوسطة تتوقف على نتائجهم الدراسية ، كما تتوقف على رغبتهم ورغبة ذويهم .

وتشتمل المحتويات الدراسية فى المرحلة المتوسطة على علم الصرف وعلم النحو وعلم البلاغة فى اللغة العربية . ومن بين هذه المواد الدراسية

« القراءات الخماسية » (يختص الجزء الاول والجزء الثانى بعلم الصرف ، والثالث بالعوامل اللغوية المائة ، والرابع والخامس بأساس علم النحو) و« الضوء» (كتاب نحوى) و« ملا عصام الدين » (جامع نحوى ضخم مكون من مليون كلمة بقلم النحوى الشهير جامى) و« مختصر البيان » (اى علم البلاغة ، وهو من اعمال سعد الدين ، ويقل حجمه عن ملا عصام الدين بعض الشيء) . وبسبب ضخامة هذه المواد الدراسية وافتقار دارسيها الصينيين الى المعارف الحسية للغة العربية ، فان استيعابها صعب عليهم . فهناك عدد كبير ممن انصرفوا عن الدراسة فى منتصف الطريق . اما الذين لهم رغبة فى الدراسة باستمرار فى المرحلة المتوسطة والعالية ، فقد اعتادوا مغادرة ديارهم الى اماكن اخرى لتحصيل العلم ، اعتمادا على تموينات المدارس المسجدية . وذلك يؤدى الى تخليصهم من الشؤون المنزلية المرهقة من جهة ، والى تخفيف اعباء ذويهم الاقتصادية من جهة اخرى . وكان ذلك ضروريا جدا بالنسبة للطلاب الذين ينحدر معظمهم من اسر فقيرة . ولو بقوا فى المدارس المسجدية فى مواطنهم ، لما استطاعوا الحصول على معونة مالية . ويومها كان هؤلاء الطلاب ينتقلون عادة من مناطق الصين الداخلية الى حدودها النائية ، ومن المدن الى القرى او بالعكس ، متجشمين مشقات السفر الطويل ، ومذللين مختلف انواع الشدائد والمصاعب ، حرصا منهم على الالتحاق بالمدارس المطلوبة . فاذا لم يحالفهم الحظ فى الالتحاق بالمدرسة المطلوبة يقابلون فى اغلب الاحيان بحسن الضيافة لدى المسلمين هناك ، بل يحصلون على معونات تمكنهم من التوجه الى مكان آخر ليتحقق املهم فى نهاية المطاف . ويجوز لكل طالب ان يكمل دراساته من المرحلة المتوسطة الى المرحلة العالية على يد معلم واحد . كما يسمح له ان ينتقل من مدرسة الى اخرى لمتابعة الدراسة على يد امهر معلم . وكان العلماء المتبحرون والمهرة فى التعليم مقصدا

للطلاب . ولكن لا يمكنهم ان يلبوا طلبات الجميع بطبيعة الحال ، لأن عدد الطلاب عندهم محدد . اما المدارس التى قلت شهرة معلميها ، فقد كانت تتيح للقادمين فرصا اكثر للالتحاق بها .

ومما يستحق الذكر ان المدارس المتوسطة والعالية غير منفصل بعضها عن بعض . فليس بينهما فرق لو لا اختلاف موادهما الدراسية . وكانت هناك مدارس تعلم فيها المواد الدراسية المتوسطة والعالية معا ، الى جانب ان هناك مدارس مختصة بالتعليم المتوسط او نظيره العالى ، وذلك حسب مستوى المعلمين او احوال الطلاب . وفى المدارس الجامعة بين المرحلتين كان المعلمون يكتفون بالقاء الدروس على الطلاب فى المرحلة العالية ، ويتركون النجباء منهم يعلمون الطلاب فى المرحلة المتوسطة تحت اشرافهم .

وتشتمل المواد الدراسية العالية على علم الفقه (مادته الدراسية هى « شرح الوقاية ») وتفاسير القرآن الكريم (من بينها تفسير الجلالين وحسين والقاضى . . الخ) وعلم التوحيد (مادته الدراسية هى « العقائد النسفية » بتأليف نجم الدين عمر النسفى المعروف بأنه احد متكلمى الاحناف) . وبالاضافة الى ذلك فقد كانت هناك مدارس تعلم فيها اللغة الفارسية ، مما اتاح للطلاب ان يدرسوا الكتب الاسلامية بهذه اللغة . ونظرا لضخامة هذه المحتويات الدراسية ، فان اكمال دراستها عادة ما كان يستغرق مدة تتراوح بين بضع عشرة سنة وعشرين سنة .

مصادر معاشات الطلاب فى المدارس المسجدية

كانت المدارس المسجدية تؤسس فى ظروف اقتصادية عصيبة ، فلم يكن هناك بد من ان تتخذ الاجراءات المتيسرة حسب الاحوال لتوفير معاشات الطلاب . وقد سبق لعدد من المدراس ان استفادت من نظام الجمع بين الدراسة

والعمل ردحا طويلا من الزمن لحل هذه المشكلة . وكان من ذلك ان الامام ما اللانتشوى قد ابتاع طاحونا ، مما اتاح للطلاب ان يدرسوا نصف يوم ، ويطحنوا الحبوب فى النصف الآخر لتوفير معاشاتهم . وعلى الرغم من ان هذا الاسلوب كان يزيد من عزيمة الطلاب على مواجهة الحياة الشاقة الا انه كان يؤثر بالتأكيد فى تحصيلهم العلمى ، ذلك انهم كانوا ينشغلون بمشكلة معاشاتهم انشغالا دائما خلال متابعتهم دراساتهم . ونتيجة لذلك فقد حل نظام التزويد محل الجمع بين الدراسة والعمل تدريجيا . غير ان مصادر التزويد كانت تختلف باختلاف المناطق . فقد كان بعض المدارس يعتمد على اوقاف المساجد ، وبعضها الآخر يستند الى تبرعات المحسنين من المسلمين . وبالاضافة الى ذلك فقد لجأ المسلمون فى الكثير من المناطق الى اطعام الطلاب فى بيوتهم على التناوب . ومع ان حياتهم كانت على مستويات مختلفة الا ان معظمهم كانوا يواجهون صعوبة فى المعيشة . وقد استعرض الشيخ وانغ جينغ تشاى (١٨٧١ — ١٩٤٩ م) احد علماء الاسلام الصينيين الكبار — حياته فى احدى المدارس المسجدية فى مقالة تحت عنوان « ٥٠ سنة فى الدراسة » قائلا : " فى سنة ١٩٠٣ غادرت تيانجين الى قرية دينتشوانغ جنوب تسانغتشو ، حيث بدأت اتتلمذ على الشيخ هاى سى فو الذى كان اول من دعا هناك الى نبذ العادات السخيفة على ضوء الكتاب والسنة ، والذى عرف بذكائه وكفاءته فى علوم الدين . وقد امضيت سنتين فى مدرسته بحيث تعلمت منه كثيرا من المعارف ، كما عانيت من الشدائد والمشقات الكبيرة . وكانت حجرات الطلاب هناك محرومة من اى جهاز تدفئة . . حتى فى اشد مراحل الشتاء برودة . اما انا فلم يكن لدى سوى لحاف ومفرش ، لذلك غالبا ما كنت ارتجف آناء الليل من شدة البرد . وعند الفجر كان الجو شديد البرودة ، حتى ان المياه لا تلبث ان تتجمد فور صبها على الارض . وكان

لا يسمح لنا باشعال النار بحزمة من الهشيم الا اذا بلغ البرد ذروته . وكان القرويون يقدمون الينا على التناوب وجبتين من الطعام كل يوم ، شريطة ان يذهب خادم المسجد من بيت الى آخر حاملا معه سلة وجرة لجمع الاطعمة المكونة من دقيق الذرة والحنطة ، والتى لا تبلع الا على مضض . وفى بعض الاحيان كانت الوجبة الاولى لكل فرد بسيطة ، لا تتجاوز فنجانين من الحساء ، وخالية حتى من الخبز . وكلما انتهيت من تناول الطعام عدت الى غرفتى منفردا للقراءة . . ولمواجهة البرد القارس اهتديت فى آخر الامر الى طريق الاستدفاء بادخال قدمى فى القش . . " ان رواية الشيخ وانغ جينغ تشاى هذه تعتبر صورة مصغرة عن حياة طلاب المدارس المسجدية آنذاك . ولقد انصرف عدد كبير من الطلاب عن متابعة الدراسة فى منتصف الطريق لعجزهم عن اجتياز امتحان الظروف الشاقة ، او لعجزهم عن استيعاب المواد الدراسية الصعبة . ونتيجة لذلك كان عدد مكملى الدراسات ضئيلا جدا .

دبلوم المدارس المسجدية

يفيدنا تاريخ التعليم الاسلامى ان المعلمين فى فجر الاسلام كانوا كلما تم لهم تعليم احد وقعوا على مقدمة كتابه ، او على موقع خال من الكتابات ، تصديقا على اتمام دراسته ، او منحوه رخصة تسمح له ان يعلم الآخرين ما تعلمه . وبفضل تطور التعليم الاسلامى صار للمعاهد والمدارس الدينية دبلومات مماثلة لمثيلاتها فى المدارس العامة . ولكن دبلومات المدارس المسجدية فى الصين هى الاروع من نوعها . وقد يعود السبب فى ذلك الى ان اعداد رجال الدين فى البلاد بالغ الصعوبة .

وبما ان المدة الدراسية للمدارس المسجدية غير محددة ابدا فليس هناك نصوص خاصة بوقت تخرج الطلاب . فاذا كان احدهم صالحا للتخرج

فى نظر استاذه ، اقيمت له حفلة تخرج فى اى وقت مناسب . اما ترتيبات الحفلة فتختلف باختلاف الاماكن . ولكنها تشتمل على البرامج التالية على وجه العموم : ١ — تلاوة الآيات القرآنية . ٢ — إلقاء المعلم كلمة تركز على اهمية إعداد رجال الدين اقتباسا من الآيات القرآنية والاحاديث النبوية ، والتعريف بكفاءة المتخرج فى علوم الدين ، وتشجيعه على بذل الذات فى سبيل الله . ٣ — إلقاء المتخرج محاضرة دينية خاصة باعداد خلف الاسلام تعبيرا عن عرفانه بجميل استاذه وعامة المسلمين . ٤ — قيام مندوب المسلمين بتهنئة المتخرج . وبعدئذ يتعين على المعلم ان ينعم على المتخرج بجبة حريرية خضراء ، تعتبر لباس شرف له ، كما ينبغى له ان يمنحه بيرقا حريريا — يعد دبلوما له — تكتب عليه عبارات تشير الى موجز سيرة من استحقه وشمائله وكفاءته فى علوم الدين ، وتعبر عن امل المسلمين فيه . ويزخرف البيرق على جانبيه بقطعتين حريريتين مستطيلتين ، تكتب عليهما عبارتان متوازيتان تدعوان المتخرج الى تقديم الخدمات للقضية الاسلامية . وبالاضافة الى ذلك فان هناك قطعا من الحرير او القماش تقدمها المدارس المسجدية المجاورة واقرباء المتخرج واصدقاؤه تهنئة له . وعادة ما يكتب على اعالى هذه القطع الحريرية او القماشية اسم المتخرج ، وفى اسافلها اسماء المهنئين ، وفى اواسطها كلمات مشجعة مثل " صاحب الفضل والعلم " و" لقضيتنا خلف " و" اظهر ديننا الحنيف " و" من اجل رفعة الاسلام " . . الخ . ويختلف عدد هذه القطع الحريرية او القماشية بحكم تأثيرات من يستحقونها وباختلاف الاماكن . ولكنها قد تصل المئة احيانا .

وبعد هذه الاجازة يصبح المتخرج مؤهلا للامامة فى المسجد .

اسهامات التعليم المسجدى

مع ان المدارس المسجدية لم تتوفر لها ابدا الظروف الاقتصادية الجيدة ، الا انها توصلت ، بمرونتها فى التعليم ، الى إعداد الآلاف المؤلفة من رجال الدين الذين لا غنى للمسلمين الصينيين عنهم . وكان من ضمنهم علماء متبحرون فى علوم الدين ، لهم اياد بيض فى التعليم الاسلامى الصينى ، وعلماء رقاق القلوب بذلوا جهودهم للقضية الاسلامية زاهدين فى الحياة الدنيا . وهذا ما ضمن استمرار الاسلام فى الصين على مدى اكثر من ١٣٠٠ سنة .

ان التعليم فى المدارس المسجدية قد مهد الطريق الى ترجمة الكتب العربية والفارسية الى اللغة الصينية ، ويعد اقدم تعليم باللغات الاجنبية فى الصين . وجدير بالذكر ان توصل علماء الاسلام الصينيين القدامى الى تحديد مدلول كل كلمة عربية وفارسية باللغة الصينية باحكام فى وقت تنقصهم فيه القواميس ، واستيعاب قوانين التبديل بين اللغة الصينية من جهة واللغتين العربية والفارسية من جهة اخرى ، وتلخيص مجموعة كاملة من قوانين الترجمة ، ليعد حدثا عظيم الشأن فى تاريخ التعليم الصينى باللغات الاجنبية وفى تاريخ الترجمة الصينى .

واضافة الى ذلك خلف هذا التعليم وراءه نوعين من التراث الثقافى يجب الاهتمام بحمايتهما ودراستهما .

يشار بأحدهما الى مجموعة كبيرة من المخطوطات الاسلامية . ومما يستحق الذكر ان فن الطباعة قد عمم فى العالم الاسلامى فى وقت متأخر من ظهوره ، بدليل من ان تركيا لم تمتلك آلة طباعة الا فى القرن الثامن عشر وان مصر لم تشهد مطبعة الا فى سنة ١٨٨٢ م . وقبل انتقال الكتب الاسلامية المطبوعة فيما وراء البحار الى الصين كانت جميع المواد الدراسية والمراجع المستعملة فى المدارس المسجدية الصينية من المخطوطات . يومها كان نسخ

هذه الكتب الاسلامية مرهقا للغاية . وتيسيرا للكتابة بالاقلام الخيزرانية كان لا بد من قطع الاوراق حسب مواصفات محددة (بحجم قطع الثمن عموما او اكثر) قبل كل شيء ، ثم جرى توريق هذه الاورق باللصوق على ضوء طريقة التوريق التقليدية الصينية ، لجعل كل منها مزدوجة الطبقات . وبعد تجفيفها يجرى صقلها بالزلط اولا ورقة ورقة ، ثم تخطيطها ثانيا بعود خيزرانى مدبب على الابعاد المحددة . وعلى اثر نسخ كتاب لا بد من تجليده بالخيوط المتسلسلة وتسوية اطرافه بمقطع حاد . . وكان الكتاب الواحد يستغرق من بدء نسخه الى اكماله مدة تتراوح من سنة الى سنتين اذا كان صغير الحجم ، ومن ٣ الى ٥ سنوات اذا كان كبير الحجم ككتاب « عمدة الرعاية » . وهناك كثير من الكتب المنسوخة واضحة ومنسقة الخطوط وجميلة التجليد . وقد اصبحت من فرائد التحف الاسلامية على كر العصور . اما مكتبة مسجد دونغسى فى بكين (اى مكتبة فؤاد الاول التى انشئت بمساعدة من مصر ايام الملك المذكور) ففيها كثير من المخطوطات الاسلامية القيمة . ومن ضمنها نسخة من القرآن الكريم كتبت بيد محمد بن احمد بن عبد الرحمن سنة ١٣١٨ م وهى الاقدم من نوعها حتى الآن . وتقع هذه النسخة فى مجلدين ٣٣ × ٥ر٤٧ سم . وهى مكتوبة بخط نسخى قوى . ولكن ثمة ثلاث صفحات من المجلد الاول مكتوبة بخط مغاير للاصل . ومن الواضح انها اضيفت فى وقت لاحق بعد ان تمزقت او بليت الصفحات الاصلية . وترى فى مكتبة الجمعية الاسلامية الصينية اعدادا كبيرة من المخطوطات الاسلامية ايضا . واشد ما يلفت النظر فيها نسخة من القرآن الكريم كتبت قبل اكثر من ثلاثمائة سنة . وتتجلى روعة هذه النسخة فى ان خطوطها النسخية انسيابية من الالف الى الياء . وليس هذا فقط بل مزخرفة بالرسوم الذهبية اللون ، ومتون القرآن الكريم محاطة بالتفاسير الميسرة والفارسية على اطراف صفحاته .

وتعتبر هذه النسخة من روائع مخطوطات القرآن الكريم .

اما التراث الثقافى الثانى الذى تركه التعليم المسجدى فهو " شياو — أر — جينغ " (كتب الاطفال المقدسة حسب الترجمة الحرفية لهذا الاصطلاح) . والحقيقة ان " شياو — أر — جينغ " هى اللغة الصينية المكتوبة بالحروف الهجائية العربية والممزوجة بعدد من المفردات العربية والفارسية . وليس هناك تدوينات خاصة بتاريخ ظهورها . وهذه التسمية ترتبط فى اغلب الظن بأولاد المسلمين الذين كانوا يدرسون القراءات الاسلامية العربية والفارسية . وحيث ان هؤلاء الاطفال الناطقين باللغة الصينية الدارجة وسط التجمعات الاسلامية لا يعرفون كيف يكتبونها ، فكانوا كلما صادفوا كلمات او عبارات صعبة الحفظ فى مجرى دراستهم القراءات العربية والفارسية ، قاموا بشرحها مستفيدين من الالفاظ الصينية المكتوبة بالحروف الهجائية العربية ومستفيدين كذلك من الكلمات العربية والفارسية المتجانسة فى شرح المواد الدراسية ، شأنهم فى ذلك شأن استفادة دارسى اللغات الاجنبية من اللغة الام فى شرح الكلمات الجديدة عليهم . ونظرا الى ان الاطفال كانوا اول من اتخذوا اللغة الصينية المهجاة بالحروف العربية وسيلة مساعدة فى دراساتهم ، فمن المعقول ان تنسب اليهم . اما كلمة " جينغ " من اصطلاح " شياو — أر — جينغ " فتحمل معنى " الكتب المقدسة " وهى تعبير خاص فى الحضارة الصينية التقليدية . ومعروف ان كلمة " الكتاب " باللغة العربية يشار بها الى كافة انواع الكتب سواء أ كانت مقدسة ام غير مقدسة . ولكن الصينيين يسمون الكتب المقدسة " جينغ " والكتب العامة " شو " . وبعد دخول الاسلام الى الصين اطلق المسلمون الصينيون " جينغ " على القرآن الكريم والحديث الشريف ، و" شو " على الكتب الاسلامية الاخرى ، متأثرين بالتقاليد الصينية . ولما تحولت اللغة العربية واللغة الفارسية الى لغتين خاصتين بالدين

فى الصين ، اختلط مدلول " جينغ " ومدلول " شو " اختلاطا شديدا وتدريجيا لدى المسلمين الصينيين ، حتى اعتبروا جميع الكتب العربية والفارسية من قبيل " جينغ " ، سواء كانت قيمة ام غير قيمة ، كما اعتبروا جميع الكتب الصينية من قبيل " شو " . وقد استمرت هذه العادة حتى يومنا هذا . وعليه فان " شياو — أر — جينغ " هى من باب " جينغ " بطبيعة الحال .

كانت استعمالات " شياو — أر — جينغ " تتوسع حينذاك يوما بعد يوم . واذ كان الاطفال يتخذونها وسيلة مساعدة فى دراسة المعارف الاسلامية ، فقد اخذ علماء الاسلام الصينيون يستفيدون منها فى اعداد المحاضرات الدينية وترجمة الكتب الدينية ، كما بدأ عامة المسلمين الصينيين الذين يعرفون شيئا من اللغة العربية واللغة الفارسية ، ولا يعرفون اللغة الصينية ، يستعملونها فى المراسلة والتدوين .

على ان " شياو — أر — جينغ " تختلف من مكان الى آخر نتيجة لتأثرها باللهجات المحلية المتنوعة . ولذلك فان الناس فى هذا المكان قد لا يفهمون " شياو — أر — جينغ " تماما فى ذلك المكان . وهذا يدل على ان هذه اللغة لم تقنن بعد .

ومع ذلك فان " شياو — أر — جينغ " قد انتشرت فى الصين مئات السنين ، مما ترك كميات من المعلومات التاريخية . وبما انها اقدم كتابات تستعمل فى تهجية للغة الصينية ، فانها تحتل مكانة معينة فى تاريخ اللغة الصينية .

نواقص التعليم المسجدى فى الصين

حيث ان الاوراق وفن الطباعة لم تكن تستعمل على نطاق واسع فى القرون الوسطى التى لم تشهد تطورا فى الحضارة المادية ، فقد كان دارسو علوم الدين فى حظيرة الاسلام يستفيدون من الاستظهار الآلى استفادة رئيسية .

ومع ذلك فقد تم إعداد كثير من العلماء النابغين الذائعى الصيت فى العالم مثل ابن سينا (٩٨٠ – ١٠٣٧ م) ويحيى ابن خلدون (نحو ١٣٣٢ – ١٤٠٦ م) . . الخ . ولكن لا يمكن القول بأن الاسلوب التعليمى السائد آنذاك قد خلا من النواقص . اما التعليم المسجدى الصينى الذى نشأ من التعليم الاسلامى السائد فى القرون الوسطى فهو لا يخلو من النواقص بطبيعة الحال .

كانت المدارس المسجدية تتبع اسلوب " السكب " التعليمى الذى يدعو الى الاستظهار الآلى ، ولا سيما فى المرحلة الابتدائية من الدراسة . زد على ذلك انها كانت تحمل الطلاب من المواد الدراسية ما لا طاقة لهم به . وهذا ما جعل الكثير منهم يقفون امامها حائرين مثلهم مثل الذى تعترض طريقه بحار مترامية الاطراف . واذا استثنينا عددا من الدارسين الموهوبين والمجتهدين ، فقد كان هناك كثير من الدارسين ينقصهم شعور بالتركيز فى الدراسة لعدم تطبيق نظام الامتحان وعدم تحديد مدة الدراسة فى مدارسهم . وعلى الرغم من ان عددا من هؤلاء الطلاب قد تكللوا بالنجاح فى الدراسة عبر جهود مضنية استغرقت بضع عشرة سنة ، الا ان هناك عددا آخر منهم قد امضوا شبابهم فى المدارس دون جدوى ، مما جعلهم خائبين على مدى حياتهم . وان ذلك ليدعو الى الاسف بالنسبة لهم وللقضية الاسلامية على حد سواء .

نتيجة لتطور التعليم المسجدى تلقائيا لم تكن هناك تخطيطات واضحة خاصة به . وعندما تحدث المرحوم الاستاذ محمد مكين (١٩٠٦ – ١٩٧٨ م) ، عالم الاسلام الصينى المرموق المكانة ، عن هذا التعليم فى الثلاثينات قال : " ان التجمعات الاسلامية بحاجة الى الاكفاء فى علوم الدين ليتولوا الامور الدينية وليعملوا على رعاية المسلمين وارشادهم الا ان من الصعوبة بمكان اعداد هذا النوع من الاكفاء . فمن المستحسن اختيار الشباب الموهوبين ذوى الاخلاق الطيبة والطموح السامى ، وجعلهم يتلقون علوم الدين ويتهذبون

اسلاميا لكى يصبحوا علماء متأدبين . . اذكياء الافئدة . . ثاقبى الابصار . ان مثل هذا النوع من العلماء سيكونون مؤهلين للعمل فى سبيل القضية الاسلامية لا محالة . "

فلو قبلت المدارس المسجدية الطلاب دون قيد او شرط لتوقفت النسبة العظمى منهم عن الدراسة فى منتصف الطريق . وهذا لا يؤدى الى تبديد اموال هائلة فحسب ، بل يحول دون اظهار اولئك الفاشلين مواهبهم فى مجالات اخرى : اما الذين اكملوا دراساتهم معرضين انفسهم لمختلف انواع الشدائد والمشقات فلم يتح لكل واحد منهم فرصة خدمة الاسلام .

ان اللغة العربية هى خير وسيلة لاستيعاب علوم الاسلام . غير ان هذه اللغة لا يمكن اتقانها بسهولة لشدة صعوبتها . ولذلك فان دراسة علوم الدين باللغات الاعجمية مباحة حسب الاحكام الاسلامية . بدليل من ان بعض المواد الدراسية فى المدارس المسجدية باللغات الفارسية وليس العربية . ووفق ذلك فان دراسة علوم الدين بواسطة اللغات الانجليزية واليابانية والفرنسية والصينية . . الخ مقبولة ايضا . ولكن هذه المدارس كانت لا تدعو الى دراسة اللغة الصينية . وفى هذه الحالة كان لا بد لدارسى علوم الدين من دراسة اللغتين العربية والفارسية بضع عشرة سنة قبل كل شيء ، الامر الذى اعاقهم عن استيعاب علوم الدين اعاقة كبيرة . والانكى من ذلك ان المحيط العلمى لهؤلاء الدارسين كان محددا نتيجة لامتناعهم عن دراسة اللغة الصينية والمعارف الثقافية .

تجديد التعليم المسجدى

ومع ان المدارس المسجدية كانت تغفل عن دراسة اللغة الصينية على وجه العموم ، الا ان الصين شهدت عددا من علماء الاسلام المتقنين للغتين

العربية والفارسية والمتعمقين فى اللغة الصينية . وقد جرت العادة على تسميتهم
" علماء الحضارة الاسلامية والحضارة الصينية " . وكان من اشهرهم الشيخ وانغ داى يوى والشيخ تشانغ جيون شى والشيخ ليو تشى و وو تسون تشى وغيرهم من العلماء فى اواخر عهد اسرة مينغ واوائل عهد اسرة تشينغ .

وكان هؤلاء العلماء يبذلون اقصى جهودهم لخدمة الاسلام فى الظروف الشاقة ، حتى تم لهم تأليف اعداد كبيرة من الكتب الاسلامية باللغة الصينية الى جانب ترجمة كثير من الكتب الدينية الى اللغة الصينية . وبالاضافة الى ذلك فقد لجأ الشيخ ما ليان يوان (١٨٤١ — ١٨٩٥ م) الى تعليم طلابه باللغتين العربية والصينية معا ، اذ كان يعمل اماما فى قرية لونغمن بمحافظة يويشى من مقاطعة يوننان . وكان هؤلاء العلماء فى الحضارة الاسلامية والحضارة الصينية موضع احترام . ولكن كانت هناك نزعة خاطئة متعمقة فى نفوس اغلبية رجال الدين والمسلمين ، تتلخص فى عبارة : " القرآن الكريم موسوعة لكافة العلوم ، فلا حاجة الى قراءة سائر الكتب " . ولذلك فان اغلبية المدارس المسجدية ظلت تهمل دراسة اللغة الصينية والمعارف الثقافية باستثناء مذهب " شيداوتانغ " الذى ظهر فى اواخر القرن التاسع عشر ، فهو ينشر التعاليم الاسلامية اعتمادا على المؤلفات الدينية باللغة الصينية فقط . ولكن هذا المذهب لم يحظ بشعبية واسعة وسط المسلمين الصينيين ، ولم يكن له تأثيرات كبيرة ، بل كان هناك عدد من المسلمين المحافظين يعتبرونه بدعة .

وحيث ان التعليم الاسلامى ظل يمارس وراء ابواب المدارس المغلقة ردحا طويلا من الزمن ، فان رجال الدين الذين تثقفوا على هذا المنوال كثيرا ما كانوا ينتهجون طريق اسلافهم ، فتنقصهم روح الابداع فى مضمار التعليم . زد على ذلك ان رجال الاسلام الصينيين — ومن بينهم العلماء المتعمقون فى علوم الدين — كان من الصعب عليهم ان يشرحوا فحوى القرآن الكريم

والشريعة الاسلامية باللغة الصينية البليغة فى معانيها بما فيه الكفاية ، وذلك لأنهم كانوا لا يعرفون قراءة هذه اللغة ولا كتابتها . فلا ريب ان يكون هذا الامر قد ترك اثره الكبير على تطوير الاسلام فى الصين . وازاء هذا الوضع بذل الطليعيون من المسلمين الصينيين جهودهم للاهتداء الى طريق تجديد التعليم الاسلامى فى الصين ، حرصا منهم على إعداد " علماء الحضارة الاسلامية والحضارة الصينية " لمواكبة العصر . وكان الشيخ وانغ هاو ران (١٨٤٨ — ١٩١٨ م) اول من دعا الى تأسيس المدارس الاسلامية الجديدة الطراز . وقد سبق للشيخ وانغ ان قام بالتحقيق فى التعليم فى بلدان غربى آسيا مغتنما فرصة ادائه فريضة الحج فى ام القرى سنة ١٩٠٦ . وخلال وجوده فى الامبراطورية العثمانية قوبل بحفاوة بالغة لدى الخليفة رشد الذى لم يكتف باهدائه كميات كبيرة من الكتب الدينية ، بل قرر ايفاد معلمين الى الصين . وبعد ان عاد الشيخ وانغ الى بكين سالما غانما ، قام سنة ١٩٠٧ بتأسيس مدرسة نظامية اسلامية للمعلمين فى حرم مسجد نيوجيه فى بكين ، كما قام سنة ١٩٠٨ بتأسيس المدرسة الابتدائية الاسلامية رقم ١ فى نفس الموقع ، الامر الذى فتح صفحة جديدة فى تاريخ التعليم المسجدى الصينى . وفى السنة ذاتها نشرت فى مجلة « توعية المسلمين » التى اسسها الطلاب الصينيون المسلمون فى طوكيو . . نشرت مقالة تدعو هى الاخرى الى تجديد التعليم المسجدى . وقد اشار كاتب المقالة بوضوح الى ضرورة تجديد التعليم المسجدى لاعداد العلماء النابغين فى علوم الدين وذوى المعارف الاجتماعية ، كما دعا الى اتخاذ اللغة العربية واللغة الصينية وعلم الرياضيات دروسا اجبارية ، والتاريخ والجغرافيا وغيرهما دروسا اختيارية فى هذه المدارس . ان لجوء الشيخ وانغ هاو ران الى تأسيس المدارس الدينية النظامية ، ومناداة مجلة « توعية المسلمين » بتجديد التعليم المسجدى قد لعبا دورهما فى تجديد التعليم المسجدى ونشر التعليم

العام وسط المسلمين الصينيين . وبتأثير من ذلك ما لبث تيار تأسيس المدارس النظامية فى المساجد ان عم كافة انحاء البلاد . وكان من اشهر هذه المدارس مدرسة تيانجين الاسلامية التى اسسها الشيخ يانغ تشونغ مينغ سنة ١٩١٠ م . وهى تلتزم بالاهتمام بالحضارة الاسلامية والحضارة الصينية ، ومدرسة تشنغدا للمعلمين التى اسسها الشيخ ما سونغ تينغ فى جينان سنة ١٩٢٥ م (وقد انتقلت الى بكين سنة ١٩٢٩ م ثم الى قويلين بعد نشوب حرب المقاومة ضد اليابان) ، ومدرسة شانغهاى الاسلامية للمعلمين التى افتتحها الشيخ دا بو شنغ والشيخ ها ده تشنغ سنة ١٩٢٩ م (وقد انتقلت الى مدينة بينغليانغ بمقاطعة قانسو ابان حرب المقاومة ضد اليابان حيث غير اسمها الى مدرسة المعلمين فى شرقى قانسو) ، ومدرسة وانشيان الاسلامية للمعلمين التى انشأها السيد تشو جى سان والسيد لى رن شان سنة ١٩١٨ ، ومدرسة اللغتين الصينية والعربية رقم ١ ، التى اسسها السيد ما شاو يون فى نينغشيا سنة ١٩٣٤ م ، ومدرسة الهلال للبنات فى بكين ، تلك التى اسسها الشيخ ما سونغ تينغ سنة ١٩٣٥ م . . الخ . وفى الفترة ما بين سنة ١٩٣١ م وسنة ١٩٤٥ م تم لبعض المدارس الاسلامية النظامية فى الصين ايفاد خمسين طالبا ونيفا فى عدة مجموعات الى جامعة الازهر . وقد انبثق من هؤلاء المبعوثين عدة علماء بارزين امثال الاساتذة محمد مكين ومحمد تواضع بانغ شى تشيان وسليمان تشانغ بينغ دوه وعبد الرحمن ناجون وناشيون . وقد لعبوا دورا كبيرا فى نشر الحضارة الاسلامية والتبادل الثقافى بين الصين وبلاد العرب . وبالاضافة الى ذلك بادرت المساجد فى مختلف مناطق الصين الى تعميم التعليم العام ، مما ترك اثره فى رفع المستوى الثقافى لعامة المسلمين الصينيين . وتمشيا مع تطور التعليم الاسلامى النظامى والعام شهدت القضية الثقافية الاسلامية فى الصين تطورا مماثلا .

ومنذ ولادة جمهورية الصين سنة ١٩١٢ م انشئت فى الصين اكثر من

سبعين مجلة اسلامية دورية على التوالى . من ذلك ان مجلة « تشينغتشن » الشهرية — ومقرها فى يوننان — هى الاقدم من نوعها . وكانت مجلة « نضارة الهلال » المؤسسة فى بكين سنة ١٩٢٨ م ومجلة « نور الاسلام » المؤسسة فى تيانجين سنة ١٩٢٩ م اطول من اخواتهما عمرا . وفى الوقت ذاته ظهر فى الصين عدد من مؤسسات النشر الاسلامية على التوالى ، كان من ضمنها دار الكتب والصحف الاسلامية فى بكين ، ودار المؤمنين للكتب ، والمكتبة الاسلامية الصينية فى شانغهاى وغيرها . وقد تم لهذه المؤسسات الثقافية توزيع اعداد كبيرة من الكتب الاسلامية المطبوعة خارج الصين الى جانب نشرها كثيرا من التأليفات والتراجم المنجزة على ايدى علماء الاسلام الصينيين .

ان تجديد التعليم المسجدى وظهور المؤسسات الثقافية الاسلامية قد تركا اثرهما الايجابى فى المدارس المسجدية فى الصين . ويتجلى ذلك فى ان الكثير منها اخذت فى اضافة اللغة الصينية والمعارف الثقافية الى دروسها . ونتج من ذلك اعداد المزيد من " علماء الحضارة الاسلامية والحضارة الصينية " . ومما يستحق الذكر بصورة خاصة ان مكتبة فؤاد الاول فى مسجد دونغسى ببكين ، تلك التى تأسست بمبادرة مشتركة من الشخصيات الاسلامية المعروفة مثل باى شو يى وما لين يى وتشاو تشن وو . . الخ ومشاهير الشخصيات الاجتماعية من غير المسلمين مثل تساى يوان بى ولى جين شى وتشن يوان وونغ ون هاو وتشو جيا هوا وتشانغ شينغ لانغ وتاو شى شنغ وقو جيه قانغ وفنغ يو لان ، وبمعونة من ملك مصر الاسبق فؤاد الاول ، لتعتبر حدثا منقطع النظير فى التاريخ الثقافى لمسلمى الصين . ومن دواعى الغبطة ان القضية الثقافية الاسلامية لم تكن تحظى بدعم من الشخصيات البارزة من غير المسلمين فحسب ، بل كانت تتوهج بأشعة الصداقة التقليدية بين الصينيين والمصريين .

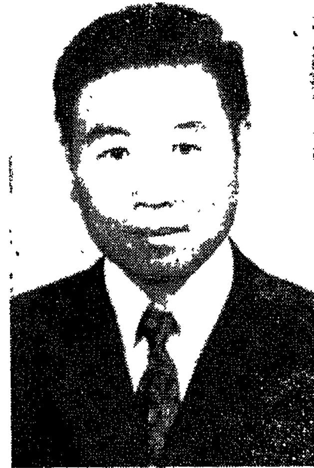
وقد تم للمدارس الاسلامية النظامية اعداد مجموعة لا بأس بها من الاكفاء

فى علوم الدين ؛ ومهما يكن من امر فان رجال الدين الذين نشأوا على النظام التعليمى التقليدى ظلوا يمثلون النسبة العظمى من ائمة المساجد فى الصين ، فيحق لنا القول بأن الاستفادة من النظام التعليمى بنوعيه القديم والجديد هى الميزة الرئيسية للتعليم الاسلامى المعاصر فى الصين .

وبعد تأسيس جمهورية الصين الشعبية سنة ١٩٤٩ اخذت الحكومة الشعبية فى تنفيذ سياسة حرية العقيدة الدينية . وهذا ما جعل المدارس المسجدية فى مختلف انحاء البلاد تبقى على ما كانت عليه . زد على ذلك تأسيس المعهد الاسلامى الصينى فى بكين سنة ١٩٥٥ . وكانت مدة الدراسة فى هذا المعهد اربع سنوات ، ومواده الدراسية هى القرآن الكريم والسنة النبوية وعلم الفقه وعلم التوحيد واللغة العربية . . الخ . وكان من بين معلمى المعهد علماء صينيون بارزون مثل الشيخ محمد تواضع بانغ شى تشيان والاستاذ امين تشن كه لى ، كما كان من بينهم اربعة اساتذة مصريين : الدكتور بهى الدين زيان ، والاستاذ محمد عبد اللطيف والاستاذ حامد سليمان ، والاستاذ على ، مما اتاح للكثير من الطلاب ان يتعمقوا جيدا فى علوم الدين واللغة العربية . ولكن " الثورة الثقافية " اغلقت ابواب جميع المدارس المسجدية وكذلك الحال بالنسبة للمعهد الاسلامى الصينى الذى تاسس فى الخمسينات . ومن يومها توقف التعليم الاسلامى فى الصين ما عدا قلة قليلة من المدارس الدينية التى افتتحها المسلمون خفية ، وذلك فى المناطق التى كان حكم " عصابة الاربعة " فيها ضعيفا بطبيعة الحال . وبعد انقضاء تلك المحنة الجسيمة اعادت الحكومة الشعبية تنفيذ سياسة حرية العقيدة الدينية . وفى ظل هذا الوضع الجديد عاد التعليم الاسلامى الصينى الى مجراه الطبيعى بالتدريج ، وليس هذا فحسب بل شهد شيئا من التطور فى بعض المناطق . وجدير بالذكر ان ابواب المدارس المسجدية كانت مفتوحة امام الدارسين الشباب فقط ، أما

الآن فقد اصبحت مفتوحة للشابات ايضا فى بعض منها . زد على ذلك ان عدد الطلاب فى بعض المدارس قد تجاوز ما كان عليه . فمثلا : عندما احتفلت احدى المدارس المسجدية فى قرية شاديان بمقاطعة يونان بمولد النبى عليه الصلاة والسلام سنة ١٩٨٦ ، اقامت حفلة تخرج لثلاثين من الطلاب والطالبات دفعة واحدة . ويعتبر ذلك نادرا فى تاريخ التعليم الاسلامى الصينى . ولقد تم بالاضافة الى ذلك تأسيس ستة معاهد اسلامية فى شنيانغ ولانتشو وينتشوان وتشنغتشو واورومتشى وكونميننغ بعد اعادة افتتاح المعهد الاسلامى الصينى سنة ١٩٨٢ .

المؤلف فى سطور



ولد محمود يوسف لى هوا ين — صاحب الكتاب — سنة ١٩٣٦ ، وتلقى علومه الاسلامية والعربية فى المعهد الاسلامى الصينى . ولما تخرج فيه سنة ١٩٥٧ عمل موظفا فى البريد من سنة ١٩٥٨ الى سنة ١٩٦١ . ثم انتقل سنة ١٩٦٢ الى مجلة « الصين المصورة » — اكبر مجلة تصدر للخارج — حيث بدأ يعمل فى التعريب . انه يعكف على دراسة العلوم والحضارة الاسلامية فى اوقات فراغه ، مما جعله يلم بمعرفة واسعة فى تاريخ الاسلام .

ومنذ سنة ١٩٨١ توجه الى مكة المكرمة مرتين لأداء فريضة الحج ، كما ترك آثار قدميه فى كثير من البلدان الاسلامية . وله كثير من المقالات حول الاسلام ، حظيت باستحسان القراء داخل الصين وخارجها . يعمل الآن مديرا للتحرير والترجمة باللغة العربية فى مجلة « الصين المصورة » ، وعضوا فى اللجنة الخامسة للجمعية الاسلامية الصينية ، وعضوا فى مجلس الادارة ارابطة المترجمين الصينيين ، وعضوا دائما لجمعية الدراسات الإسلامية ببكين .

مطبعة اللغات الاجنبية   بكين
توزيع
الشركة الصينية العالمية لتجارة الكتب
(كوزى شوديان)
ص . ب ٣٩٩ بكين — الصين

中国的清真寺
李华英著
*
外文出版社出版
（中国北京百万庄路24号）
外文印刷厂印刷
中国国际图书贸易总公司
（中国国际书店）发行
北京399信箱
1989年（32开）第一版
（阿）
ISBN7—119—00844—7/Z·314(外)
00700
17—A—2392P